الحبّ عند العرب

دراسة أدبيّة تاريخيّة

إعداد

المكتب العالمي للبحوث

منشورات دار مكتبة الحياة

بيروت - لبنان

الحبّ
عند العرب

مقدّمة

الحبُّ نفحةَ سماوية عطرة تفعم اجواءَ النفوس بكل ما رقَّ ولذَّ وطابَ ، وهو عاطفة جيّاشةَ في الصدور تملأ حناياها بنغمات عِذَابٍ هي السعادة التي ما بَعْدَها من سعادة .

والحبُّ عظيم قادر وموضـع إعجاب الجميع دونَ استثناءٍ وما قصص الحب التي عبقتْ في ارجاءِ المعمورةِ عامَّةً الا صدىً للنفوس التي تيَّمها الحب فلذّها او اذلّها وما القصائدَ والملاحم الا انعكاسَ لأنواره المُشِعَّةِ اناشيدَ قَيِّمَةً في تمجيدِ الحبَ وتقديس أجوائه العابقةِ بشذا الطهر والجمال المختمرةِ بأنفاس الروعةِ والـكمال والمشبعةِ برَوح الالهة وأغاني الفردوس .

والكتب الادبية عربيةً وغربيةً ملأى بأخبار الحب العجيبةِ الغريبة ممثلةً الحياةَ الاجتماعية الى حد ما وعاكسةً نفسيَّات قائليهـا وباعثيهـا الى الوجـود ابطـالاً وعظماءَ ، بطلا ت وعظيمات ، خالدينَ وخالداتِ في عالم الحبَ وهل العالم غـير الحبَّ الصادق الخالد ان كنّا منصفين ؟

الفَصْل الأوَّل

بَيْنَ العِلمِ والحُبّ

الحب يجمّل النفس ويملأ جوانبها على تخيّل الأجمل والأفضل والأكمل ويحملها على التفكير في امور الحياة وشؤون البشر وتقليب وجوه التصرف حماسةً في العمل ورقةً في المعاملة وإقداماً لا مثيل له على المخاطر واجتياز المصاعب والعقبات . . . وكل حب حقيقي يسوق صاحبه الى حالة فلسفية او الى شيء منها على اقل الاحتمالات .

الحياة العاطفية هي التي تقرر مسلك الانسان وسيرته وتتوافق اكمل التوافق وعاطفته الجمالية والأفكار التي هي محض افكار تظل عاجزة ما دامت لا تلاقي عاطفة تكافح من أجلها ولقد لاقت الرومانطيقية ما لم يلقه مذهب من مذاهب الفكر والعمل والحياة والأدب وخاصة في العالم الاوروبي .

وذلك لأن القرن التاسع عشر أخذ بالعلم ومنجزاته وهجر الدين وانصرف عما وراء الطبيعة الى ما يقوله العلم ويؤيده بالبراهين القاطعة التي لا تقبل الجدل والشك . وجاء داروين فنسف كل ما بقي للعقلية الغيبية القديمة من أثر ، وخلق جواً عاصفاً من الجدل والبحث خرج منه رجال الدين متعبين منهكين ، كما جاء ماركس بماديته التاريخية فنسف كل ما سبق للناس وأقروه من شرائع في دنيا الاجتماع والاقتصاد ، ووضع قواعد سياسة جديدة تهدف الى وضع السلطة في ايدي العمال ، والقضاء على رأس المال .

وواكبت الفلسفة هذه الحركات العلمية ، فكان نيتشه الذي دعا الى الأخذ

بمبدأ القوة وسيادة القوة ، وانتقد كل ما تواضع عليه الناس في عالم الأخلاق ، وأعلن إلحاده بشكل عنيف ، ورفض القول بالرأفة والبر والإحسان فخلق تيارا فكرياً قوياً يتجه نحو تمجيد فئة من الناس ، هم الأقوياء ، على حساب الفئة الأخرى التي تدين بالطاعة ، وتذعن للسلطة ، ولا تحسن التمرد على شيء . وبهذا برر الاستعمار ، ودفع الغربيين نحو الاستغلال والسيطرة والعدوان دون ان يهتز فيهم وجدان ، او يتلعثم لهم لسان .

ولكن ماذا حدث للحب في ذلك الجو ؟ وماذا بقي منه في ظل نيتشه وماركس وداروين ، ومن إليهم من التابعين ؟

كان ان انتشر علم حسبوه جديداً ، هو علم النفس ، وأخذت الدراسات النفسية تعم ، وهي تحاول ما استطاعت ان تعطي لهذا العلم القديم الجديد ، صفته « العلمية » اي اليقينية المحسوسة ، وبهذا انتقل الانسان الى المختبر وتحول في نظر اولئك العلميين ، الى عنصر كغيره من العناصر التي تخضع لشتى التجارب والحسابات والإحصاءات ، ولكن ظواهر سلوكه ظلت عند تفسيرها ، موضع خلاف ومثار جدل لا يظهر آخره حتى يعود أوله .

وأطل فرويد بتفسيره الجنسي للسلوك ، وذاع تفكيره في العالم كله وعاد الحب يشغل الفلاسفة والمفكرين والعلماء ، كما سبق له وشغل اللغويين والفقهاء والأطباء والفلاسفة لدى العرب .

***

ابتدأ فرويد مجموعة من الألفاظ والكلمات ذات دلالات ترد الظواهر النفسية والسلوكية الى أبسط أصولها فيما حسب ، كاللاشعور ، والكبت ، والتسامي وعقدة اوديب ، وعقدة النقص ، حتى انتهى الى وضع أسس مفترضة للتحليل النفسي . وكان همه منحصراً في شفاء المرضى الذين تظهر عليهم اعراض اضطراب عقلي او نفسي .

اما فكرته الأساسية فهي ان الغريزة الجنسية محور كل سلوك ، ومبعث كل

اضطراب ، وعن طريقها يمكّن التفكير في انقاذ الحضارة من القلق الذي انتابها في عصره . وقد انتهى إلى فكرته تلك حين لاحظ وهو يمارس العمليات الطبية ، ان في الانسان عناصر لا يستطيع المبضع والمجهر أن يكشفاها ، وهي هذه العناصر التي تتصل بحياته النفسية الخالصة ، وطرائق فهمه الخاص للناس وتصرفه حيالهم . ثم قويت عنده هذه الفكرة ، واستأثرت بنشاطه فقدّم الدليل تلو الدليل على صحة ما يرمي اليه .

وتفرّد بنظرته الفلسفية عن معظم العلماء والأطباء ، وأخذ برأي هافلوك إيليس الذي كان يقول : « سنظل عاجزين أبداً عن احترام الحياة ، إلى ان نعرف كيف نفهم الجنس » .

وهكذا . . . سرى في الناس كلام فرويد فظهروا بمظهر « الواعين » الواقعيين الذين لا تنطلي عليهم الاوهام ، ولا يركنون الى الخرافات ، لا سيما وان فرويد كان يعتقد ان الدين « ترجمة » عن حالات القلق والضيق التي تتولد من العقد النفسية القائمة في نفس كل فرد .

لقد استطاع فرويد ان يوجّه الناس نحو الجنس ، بدلاً من الحب ، فماذا كانت النتيجة ؟

كانت أن خسر الحب العفة والروحانية والطهارة ومعاني التضحية والبطولة والحماسة الوجدانية التي تبعث على سمو الأخلاق ، وانصرف الرجال إلى استثمار معارفهم النفسية للحصول على المتع المادية ، كما ان النساء انصرفن عن مثلهن العليا القديمة ، إلى توافه الحياة وسفاسفها ، فنزلن عن عروشهن في القلوب .

هذا ما كان من اثر الايمان بالعلم في الحب .

***

إن إغفال الواقع ، يؤدي دوماً إلى الكوارث في حياة الأفراد والشعوب ، الإيمان بالعلم وحده ، يغفل دوماً هذا الواقع ، وهو أن العلم شرير وخير في آن واحد ، بمعنى أنه ينقلب إلى شر لدى الذين لا يحبون ، ولا يرجون الخير على يد

الحب ، كما يتحول إلى خير لدى الذين تعمر قلوبهم بحب الإنسان ، ويعملون بما يقتضيه حبهم هذا من تضحية وبطولة .

بيد أن أحداً لا يملك أن يحب « الانسانية » كنوع ما لم يعان تجربة الحب الشخصي معاناة سليمة ، وينتقل منها إلى الانسانية كلها فيشملها بحبه . . .

والعلم يكشف أن في كل حالة غرامية عناصر تتعاون على إيجادها : الغريزة ، والحساسية ، والخيال . ثم يمضي في تشريح هذه العناصر مستنداً إلى الوقائع والتجارب والآثار في السلوك والتعبير ، ويبسط لمن يريد كل ما يريد من معلومات ، ونظريات ، وتفسيرات ، قد تتناقض مع بعضها البعض ، ولكن تفضيل مسلك على مسلك ، وتحويل امرىء أو امرأة عن طريق ، وما إلى ذلك من مسائل ملحة يعانيها الناس في نفوسهم ، وعلاقاتهم ، ومجاري حياتهم اليومية ، تظل على ما هي عليه من تعقيد ، لا يحلها علم ، ولا يفيد فيها اختراع مادي ، أو جهاز ذري أو كهربائي . وهذه المسائل هي الأساسية في تقدم الإنسان وتأخره ، في رقيه وانحطاطه ، وبالتالي في نهوض الأمم وسقوطها .

. . . . وجلية الأمر أن العلم حيادي ، واقعي ، صامت ، لا يفرق في نظره إلى الوقائع بين ما هو كائن ، وما يجب أن يكون ، ولا يناصر اتجاها أخلاقياً على اتجاه آخر ، ولا يعتبر « العفة » مثلاً علمية أكثر من « الفجوة » ولا الأمانة أفضل من الخيانة ، وإنما يدرس هذه الظواهر في الحياة الإنسانية ، باعتبارها « ظواهر » لا أقل ولا أكثر . وللإنسان وحده أن يختار بين معطياته ما يروقه منها ، وأن يطبق ما يوافقه من تطبيقاتها العملية .

واذا كان ثمة شيء اسمه « الفلسفة » كمعنى عام مطلق فإن ثمة ايضاً شيئاً اسمه الحب يصح ان نعتبره عاماً مطلقاً . ومن الواضح ان ما من فيلسوف ظهر الا وكان الى جانبه عدد من المحبين ـ والكلام هنا عن النوع ، فهو يشمل المحبات ضمناً ـ بل ان هؤلاء ظهروا ، فيما يبدو ، على الأرض ، قبل ظهور الفلاسفة ، الكهنة والعرّافين .

هذا ما تؤكده لنا تلك الظاهرة الجلية في دلالتها ، وهي ان الحب لم يصبح موضع تفكير الا بعد ان تمثل في وقائع وشواهد وحالات ، مر بها أو اطلع عليها أهل الأرض ، وحاروا في كنهها ، و« دُهشوا » لما طالعتهم به من اقوال واعمال وتصرفات ، وكانت دهشتهم تلك مبعث تفلسفهم فيه ، وحافزاً لهم على تفهمه ، واستكشاف اسراره ، شأنهم معه كشأنهم مع العالم الذي تحاول الفلسفة تفسيره .

ان التفكير في الحب شيء ، ومعاناته شيء آخر ، فإن من يعانيه يشير بذلك الى سلسلة انقلابات وتفجرات داخلية حدثت في صميم ذاته بغير علمه ، واذا هو لا يطيق معها أن يفكر أو يرى إلى ما حوله رؤية خالية من كل تأثر او انفعال ، وتتحول نظرته الى الاشياء والاشخاص والاحداث عن كل موضوعية ، وتملي عليه موقفاً ذاتياً ، يتخذه من الوجود عامة . ثم لا يتغير ذلك الموقف ولا يتبدل ، إلا بعد تغير أساسي يطرأ على حياته النفسية . وفي حال حدوث هذا التغير ينقلب عندئذ إلى التفكير ، ويصبح الحب آنذاك « مادة » يسلط عليها انوار فكره ، و « موضوعاً » يدرسه او يتذكره ، ويقدم عنه نتائج اختباراته .

في حياة كل إنسان مرحلتان : « معاناة الحب » و« التفكير في الحب » وقد تطغى احداهما على الأخرى ، ولكنهما واضحتان في كل حياة بشرية . ومرحلة المعاناة تستغرق القسم الأكبر من حياة المرأة ، أو أن هذه لا تمر بالمرحلة الثانية الا في فترات متقطعة ، قصيرة ، تتخلل الأولى تخللا ، دون ان تقطع مجراها ، او تنقطع عنها .

والشعوب في هذا الحقل كالأفراد ، بمعنى ان كل شعب يمر في تطوره بأدوار من معاناة الحب ، وادوار من التفكير فيه .

إن الرومانسية تيار معاناة للحب ، واقبال شديد عليه ، وتمرس عميق بأحواله وآلامه ولذائذه ، بينما الدور الذي تلاها يتسم بالتحليل والتعقل والايمان بالعلم والتفكير العملي حتى في تناول الحب ومشاكله .

هكذا كانت الحياة الغرامية الخصبة التي عمّت جزيرة العرب تمثل تياراً آخر من معاناة الحب ، وتضعنا إزاء رومانسية قديمة ، قوية ، زاخرة بألوان غريبة من

العواطف والتأملات والاتجاهات . وما كان لذلك التيار العجيب ان يقر ويتطاول إلا بعد قرون عديدة متطاولة ، إذا استمر يظهر بين وقت وآخر ، من يمثل زخمة واندفاعه من العشاق والشعراء والمفكرين ، ولم ينقطع الناس يوماً عن الاعجاب والتلفت إلى بدائع السير والأحاديث والقصص التي نجمت عنه ، وظل يمد ويجزر إلى ان توارى العرب أخيراً عن مسرح السياسة الدولية ، وتسلط الأعاجم على مقدراتهم . وفي تلك الفترة فحسب ، أخذت تبرز ظواهر « التفكير المنظم » في الحب ، وتصدر المؤلفات التي تعنى بتشريحه وفلسفته .

عدا عن آلاف الابحاث والنتف والمنثورة هنا وهناك وكلها تتناول اخلاق النساء بالدرس والتحليل ، وتعرض لقصص الحب ومواقف العشاق واخبار الشعراء بالتعليق ، وتبث في ثناياها نصائح وتجارب وأمثلة عملية في تربية المرأة ، والمزايا التي يجب ان تتحلى بها ، وبناء الرجال والمثل العليا التي ينبغي لهم ان يتعلقوا بها .

وما عناية العرب بالعلاقة بين الجنسين إلاّ أمور تلقي الضوء على حضارتهم الخاصة التي تكونت من تلقاء ذاتها بمعزل عن الحضارات الأخرى ، ثم تكشفت عن اسباب اضطرابهم وعوامل الوهن والانحلال والتخلف التي عطلت سيرهم ، وأدت الى تغلب الأعاجم عليهم ، وفقدهم استقلالهم ، لكن والحالة هذه ، على العرب ان يعيدوا النظر في تقاليدهم وافكارهم وآرائهم ، حول تربية المرأة ، وفهم الحب ، وتنظيم العلاقات بين الجنسين فهذه العلاقة مصدر دائما للنزاع والاعتداء ، وإمكان التدهور فالسقوط في مالا تحمد عقباه .

والتشريع الخلقي لدى العرب كان مثار إعجاب وإكبار لدى كل من عرفه على حقيقته ، وانحرافهم عن ذلك التشريع كان مصدر تقهقرهم وتسلط الأجانب عليهم في عصور الانحطاط .

ان مصدر الأخلاق العالية تلك ومبعث تلك البطولات التي تحلى بها العرب الأقدمون وانحرافهم عنها في بعض العهود ، جعل الفساد يسري الى تقاليدهم ، واضطربت العلاقات فيما بينهم ، وخملت المرأة في مجتمعاتهم ، واحتلت المادة عقائدهم وعواطفهم ، اذا لحظنا ذلك كله تفتحت امامنا ابواب التفكير الصحيح ، الى النهوض الصحيح .

الفَصْل الثَاني

مَا قيلَ في الحُبّ

الجاهلية مثلا لا تعرف التفكير المنظم ، ولكنها غنية بالعواطف ، زاخرة بالحياة ، والعصر الاسلامي الاول يرزح تحت الايمان الديني العميق ، ويهيمن عليه هذا الايمان حتى ليكسف ما عداه ، والعصر الأموي منصرف الى الجانب السياسي في الداخل والخارج على السواء ، والعصر العباسي يتسم اكثر ما يتسم ، بالنزعة الى التفلسف والتفكير والبحث الهادىء فكان التفات الفكر العربي الى آثار الآخرين ومعجزاتهم في الحقول العلمية والفلسفية ، وكان المنصور اول من أخذ في تشجيع حركة الترجمة ، فبدأت في عهده حياة فكرية خالصة ، أي اصبحت تجد من ينصرف بحياته اليومية كلياً الى العمل الفكري الصرف ، كالترجمة والتأليف والتعليم والأدب والنقد والتاريخ ولقد كان الشعر ينشأ عفو الخاطر ، ويجري به العربي على سليقته ، ويتعلق به بشكل طبيعي كوسيلة طبيعية الى التعبير عن خواطره واحاسيسه حتى اذا بدأت حياة الفكر تحبو ، وتأخذ شكلها في اطار الحضارة التي أفضى اليها الاسلام ، طفق الشعراء يستثمرون مواهبهم في تصريف الكلام لخدمة اغراضهم الشخصية فتحول الشعر الى مهنة شخصية كالتجارة مثلا مما يدل على ان حضارة العاطفة ، او حضارة الحياة انتهت مع تسلم المنصور منصب الخلافة ، وبدأت حضارة الفكر . وليس في هذا القول ما يفيد ان « الفكر » لم يكن عنصراً اساسياً في العهود الماضية ، وانما نريد بذلك انه طغى على سائر العناصر التي تتألف منها قاعدة الحضارة البشرية في العهد العباسي الاول ، بينما كان الاتجاه السياسي هو العنصر الطاغي في العهد الذي سبقه فشملت هذه النزعة الى التفكير والتفلسف كل مظاهر الحياة ، وقويت في

النفوس وعمقت ، حين انتشرت في اوساط المثقفين كتب « حكماء » الاغريق والروم والهنود .

وبطبيعة الحال فقد انصرف التفكير في « الحب » الى غيره من ظواهر الكون والطبيعة والحياة فرابعة العدوية مثلاً كانت في طليعة من استجاب لتلك النزعة التفكيرية في الحب ، من النساء ، كما عبر عن هذه النزعة العباس بن الأحنف وأبو العتاهية ، من حيث لا يشعران واول من قام بدراسات فكرية للحب عند العرب هو المسعودي ثم ما نقل عن بعضهم كالأبيات التي قالها أعرابي :

ألا ما الهوى والحب بالشيء هكذا ... يدل به طوع اللسان فيوصف
ولكنه شيء قضى الله أنه ... هو الموت أو شيء من الموت أعنف
فأوله سقم وآخره ضنى ... وأوسطه شوق يشف ويتلف
وروع وتسهيد وهم وحسرة ... ووجد على وجد يزيد ويضعف

وما قاله علي بن الهيثم :

العشق ثمر المشاكلة ، وهو دليل على تمازج الروحين ، وهو من بحر اللطافة ، ورقة الصنيعة ، وصفاء الجوهر ، والزيادة فيه نقصان من الجسد .

وما قاله ابو مالك الحضرمي :

ـ العشقُ نفث السحر ، وهو اخفى وأحرّ من الجمر ، ولا يكون إلا بازدواج الطبعين ، وامتزاج الشكلين ، وله نفوذٌ في القلب كنفوذ صيّب المزن في خلل الرمل ، تنقاد له العقول ، وتستكين له الآراء .

وقال أبو الهذيل :

العشق يختم على النواظر ، ويطبع على الأفئدة ، مرتقى في الأجساد ومسرعة في الاكباد وصاحبه منصرف الظنون ، متغير الأوهام ، لا يصفو له موجود ، ولا يسلم له موعود ، تسرع اليه النوائب . وهو جرعة من نقيع الموت ، وبقية من حياض الثكل ، غير انه من أريحية تكون في الطبع ، وطلاوة توجد في الشمائل ،

وصاحبه جواد لا يصفو الى داعية المنع ، ولا يسنح به نازع العذل .

ثمَّ النظام ابراهيم بن سيار المعتزلي حيث قال :

إن العشق أرق من الشراب ، وأدبّ من الشباب ، وهو من طينة عطرة . عجنت في اناء الحلي ، حلو المجتنى ما اقتصاد ، فاذا افرط عاد اصلاً قاتلاً ، وفساداً معضلاً ، لا يطمع في اصلاحه ، له سحابة غزيرة على القلوب ، فتعشب شغفاً ، وتثمر كلفاً ، وصريعه دائم اللوعة ، ضيّق المتنفس ، مشارف الزمن ، طويل الفكر ، اذا جنه الليل أرق ، واذا وضحه النهار قلق ، صومه البلوى ، وافطاره الشكوى . . تلك هي نظرياتهم وآراؤهم في الحب ، وتلك هي طرائقهم في فهمه وتصوّره وتصويره حتي اصبح يقف على قدم المساواة من اهتمام المفكرين ، مع غيره من الموضوعات الميتافيزيقية كالوجود والعدم ، والقدم والحدوث وما اشبه ذلك وكان الجانب الأدبي يطغي في اوصافهم وتعليلاتهم للحب على الجانب الفلسفي والتحليل المنطقي ، فان ما يقوله علماء الكلام في هذا الموضوع لا يختلف كثيراً عما قاله الأعراب من قبل ، ولا عماّ قاله بعض شعراء الجاهلية وصدر الإسلام . غير ان النزعة الى التفلسف لم تكن بعد قد تغلبت في القرن الثاني للهجرة ، فاذا نحن انتقلنا الى القرن الرابع ، عثرنا على ما هو أقوى وأعمق ، فقد بدأت الحركة الفلسفية تنشط ابتداء من القرن الثاني من المشرق ، الى ان بلغت ذروتها في مستهل القرن السادس ، وأخذت من بعده تذوي وتنحدر .

وها هو المسعودي يصوِّر موقف الناس من الحب وفهمه فيقول :

« وذهب بعض الأطباء الى ان العشق طمع يتولد في القلب ، وتجتمع اليه مواد الحكمة ، فاذا قوي زاد بصاحبه الاهتياج واللجاج في الفكر والأماني ، وييبس الدماغ . وذلك ان التمادي في الطمع للدم محرق ، فاذا احترق استحال الى السوداء . فاذا قويت جلبت الفكر فتستعلي الحرارة وتلتهب الصفراء ، ثم تستحيل سوداء ، وتصير مادة لها ، فتقوى طباع السوداء ، فتختلط الكيموسات ، فحينئذ يشتد ما به ، فيموت او يقتل نفسه ، وربما شهق فتخفى روحه أربعاً وعشرين ساعة ، فيظن انه مات فيصير حياً ، وربما تنفّس الصعداء ، فتخفى روحه في تامور

قلبه ، وينضم القلب ولا ينفرج حتى يموت ، وربما ارتاح وتشوّق ونظر الى من يحب فجأة . وقد يرى العاشق اذا سمع ذكر من يحب ، كيف يموت دمه ويحول لونه ».

« تنازع الناس في ابتداء وقوع الهوى وكيفيته ، وهل ذلك من نظر وسماع ، واختيار واضطرار ، وما علة وقوعه بعد ان لم يكن ، وزواله بعد كونه ؟ وهل ذلك فعل النفس الناطقة ، أو الجسم وطباعه ؟ فقال بقراط : هو امتزاج النفسين كما لو امتزج الماء بماء مثله ، عسر تخليصه بحيلة من الحيل . والنفس ألطف من الماء وأرق مسلكاً ، فمن أجل ذلك لا تزيله الليالي ، ولا تخلقه الدهور ، دق عن الاوهام مسلكه ، وخفي عن الأبصار موضعه . غير ان ابتداء حركته من القلب ، ثم تسير الى سائر الاعضاء ، فتظهر الرعدة في الاطراف ، والصفرة في الألوان ، واللجلجة في الكلام ، والضعف في الرأي ، حتى ينسب صاحبه الى النقص وقال بعضهم : إن الله خلق كل روح مدوَّرة على هيئة الكرة ، وجزّأها أنصافاً ، وجعل كل نصف جسداً . فكل جسد لقي قسيمه ، وهو ذلك النصف من الكرة ، كان بينهما عشق المناسبة القديمة » .

ذلك ما يرويه المسعودي ، وهذا هو تعليقه عليه ، في شأن العشق ، والمسعودي عاصر الحركة الفلسفية الكبرى في العهد العباسي الثاني ، التي أعطت ابن سينا ، والفارابي ، وابن مسكويه ، والتوحيدي ، والكندي ، والرازي (محمد بن زكريا) . وكانت كتب فلاسفة الاغريق في عهده قد ترجمت الى العربية ، وشاعت وانتشرت افكارها في معظم الاوساط المعنية بالقضايا الفقهية والدينية والطبية والفلسفية .

وكان اول عربي وضع بحثاً فلسفياً في العشق ، هو الفيلسوف الكندي ، ولكن بحثه هذا فُقد ، ولا يزال مفقوداً .

ثم جاء ابن سينا فوضع رسالته في العشق وتوالت على الأثر الرسائل والابحاث التي تتناول هذا الموضوع من الوجهتين : الفلسفية والادبية . وقد تكون رسالة « اخوان الصفاء » هي اهم ما بقي لدينا من الوجهة الاولى ، أما الادبية فانها مما لا

يقع تحت حصر ، ولا يمكن تتبعها بالدقة ، وأشهرها « طوق الحمامة » لابن حزم ، المفكر الأندلسي الذي عاش في القرن الخامس للهجرة .

أمّا افكار الادباء والمفكرين فتنصبُّ على القضايا والموضوعات بشأن الحب والتي تتعلق بأسمائه ودرجاته وصفاته

وماهيته واختلاف الناس فيه

وهل هو اضطراري او اختياري ثم في اسبابه ودواعيه وعلاماته

وعلاقته بجمال المحبوب وغيرة المحب على حبيبه والعفة وما هي عليه من قيمة وشأن في الحياة ثم

الوفاء والإخلاص في الحب

وأنواع الحب والأمثلة التاريخية على كل منها .

وكان اكثر الناس عناية بأسمائه ومراتبه اولئك الذين يهتمُّون باللغة ، ويبحثون فيها عن اسرار المعاني ، وتلك خاصة من خصائص الذهن العربي بوجه عام ، اذ كان يعتبر الكلمة دليل حياة ، ومنها ينفذ الى معرفة الحياة ، وبها يعبر عن أدق الأحاسيس وأبعد الصور عن الخيال ، ولذا كثرت المترادفات ، وهي في الواقع تعبيرات عن حالات واوصاف مختلفة لمعنى واحد او شيء واحد ذلك لأن الحب كتجربة انسانية عامة ، كان من أهم العوامل الحيوية على ايجاد هذا الجو اللغوي فقد أفضت الرغبة في البوح به ، الى عدد من الالفاظ كبير ، وافضى اختلاف الشعور به او وعيه الى اعطاء كل لون او مظهر من مظاهر ذلك الشعور ، صفة او اسماً تتحدد به الفروق ، وتتميز الأوضاع والحالات النفسية وهذه هي التعابير والكلمات . المستعملة في الدلالة على الحب ودرجاته : المحبة ، العلاقة ، الود ، الهوى ، الصبابة ، المقة ، الخُلَّة ، الوجد ، الكلف ، التتيُّم ، العشق ، الغرام ، الهيام ، الشغف ، التدلُّه ، الوله ، الجوى .

اما الاوصاف والإضافات التي يوصف بها وتضاف اليه فكثيرة منها :

اللواعج ، والتباريح ، والبرحاء ، والدنف ، والشجو ، والشوق ، والخلابة ، والشجن ، والوصب ، والكمد ، واللهف واللوعة ، والفتون فالخبل .

والعلاقة تعني تعلق القلب بالمحبوب . والود رقة العاطفة واستمرارها ، والهوى انعطاف النفس وميلها ، والصبابة حرارة الشوق الذي يخلقه الهوى الى المحبوب ،

والوجد الحب الذي يتبعه الحزن ، والكلف مشتق من الكلفة والمشقة ، وهو الحب الذي يعاني معه صاحبه مشقة الولع الدائم ، والتفكر المستمر الذي لا ينقطع ، والتتيم الانتقال إلى العبادة عبادة المحبوب ، والعشق كما عرفه ابن سيده ، أحد أئمة اللغة : « عجب المحب بالمحبوب يكون في عفاف الحب ودعارته » والكلمة مأخوذة من شجرة يقال لها عاشقة ، تخضر ثم تدق وتصفر ، وقال ابن الأعرابي : « العاشقة اللبلابة تخضر وتصفر وتعلق بالذي يليها من الأشجار ، فاشتق من ذلك العاشق » ، والعاشق هو المفرط في حبه . والغرام : الحب اللازم الذي لا يفارق صاحبه بحال ، وهو لوع عارم ، والهيام الشرود في البراري والقفار بتأثير الحب ، ومنه قولهم : هام على وجهه ، والتدله ذهاب العقل من الهوى ، والوله الحيرة واضطراب العقل ، والجوى شدة الألم الناجم عن الحب العميق .

وقد فصل الثعالبي في كتابه « فقه اللغة » الكلمات الدالة على معاني الحب كما سبق وذكرنا .

وإذا نحن لحظنا أن الحركة اللغوية ـ وهي التي عمدت إلى العناية بمفردات العربية وبيان دلالاتها ـ نشأت مع حركة الترجمة في عهد المنصور وتأثرت بالجو الفكري الذي انبثق عن الترجمات أدركنا أن القصد من تلك الدراسات اللغوية المستفيضة التي نشطت في ذلك الزمن ، وانسحبت على تتمة القرن الثاني للهجرة والثالث والرابع ، انما كان تركيز المفاهيم العربية ، وبيان الفروق بين المعاني التي كان يدركها الذهن العربي خاصة ، من الكلمات والألفاظ المستعملة ، والتي وردت في القرآن والأحاديث النبوية . وهاتان العمليتان ـ تركيز المفاهيم والتفريق بين ظلال

المعاني - من أجل وأخطر ما يقوم به الفيلسوف في خدمة الفكر الإنساني .

وذلك يعني من جهة ثانية أن الفلسفة العربية الخالصة التي لا تشوبها شائبة إغريقية أو فارسية أو هندية أو رومية ، انما تقوم أكثر ما تقوم في لغة العرب ، ثم في أدبهم ، ثم في مسالكهم العملية ؛ فنظريتهم في الأخلاق مثلاً تلخصها أمثالهم ووصاياهم وخطبهم وأشعار الحكماء منهم (زهير بن أبي سلمى ، عبد قيس بن خفاف ، أكثم بن صيفي ، سويد بن أبي كاهل اليشكري ، حاتم الطائي ، قس بن ساعدة ، الخ . . .) كما نجدها لدى كبار المفكرين في صدور الإسلام . وكذلك هي الحال في نظرياتهم السياسية والنفسية والدينية والجمالية والصوفية . . . أما الذين جاءوا من بعد كالفارابي ، وابن سينا ، والغزالي ، ومن لف لفهم فانهم لا يعبرون في الواقع عن أمة ، ولا يمثلون حضارة أو ثقافة معينة ، وحقيقة أمرهم أنهم « عبارات » ذلك الخليط من الأجواء الفكرية التي اشترك في ايجادها كل من العرب والفرس والأغريق والهنود والترك والديلم والسلجوقيون والروم .

صحيح ان الجو الذي خلقه العرب لدى احتكاكهم بهذه الشعوب كان نقطة الانطلاق في نشوء الأجواء الفكرية التي تكونت من بعد ، ولكن هذه الأجواء الأخيرة كانت تبتعد عن منطلقها ، كلما بعد الزمن ، وضعف اثر العرب في توجيه الحوادث والعقول ، حتى اذا أقبل القرن السادس للهجرة ، عمّ الجمود ، وساد الانحطاط ، وانتشرت الصوفية ، وحل الخمول محل الابداع والحركة والنشاط .

لم يكن للعرب إذن يد في « الفلسفة » التي اعتنقتها المجتمعات « الاسلامية » ابتداء من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ، ولا سيما في النواحي والجوانب الاجتماعية . وإنما كانت اليد فيها لأبي نواس ، وبشّار واشباههما ، ومن إليهم من الدخلاء على العرب ، والروح العربية ، والفكر العربي .

امَّا رسالة اخوان الصفاء ، فهي « ماهية العشق » ، وفيها يقررون ان فساد الحياة الاجتماعية الذي ران على العهود العباسية ، انما وجد سبيله الى الناس ، عن طريق « اهل فارس » ، وغيرهم من الامم التي تعشق المردان وينظرون الى

« العشق » نظرة موضوعية ، شاملة ، فلا يلتفتون الا عرضاً لمواقف الأمم والشعوب منه ، ويحاولون ان يسردوا ما لديهم من معلومات عن هذا الموضوع فيقولون :

«نود أن نورد طرفاً مما قالت الحكماء والفلاسفة في ماهية العشق ، وكمية انواعه ، وكيفية نشوئه ومبدئه ، وما علله الموجبة لكونه والأسباب الداعية اليه ، وما الغرض الأقصى منه ما دامت الخليقة موجودة » ويقولون :

ومن الحكماء من قد ذكر العشق وذمّه ، وذكر مساوىء اهله ، وقبح اسبابه ، وزعم انه رذيلة ، ومنهم من قال : «ان العشق فضيلة نفسانية ومدحه ، وذكر محاسن اهله ، وزيّن اسبابه . ومنهم من لم يقف على اسراره وعلله واسبابه بحقائقها ودقة معانيها ، فزعم انه مرض نفساني . ومنهم من قال : انه جنون الهي . ومنهم من زعم انه همة نفس فارغة ، ومنهم من زعم انه فعل البطالين الفارغي الهمم الذين لا شغل لهم . » لكنَّهم يرفضون آراء من يحسب العشق « من فعل البطالين والفرّاغ » ويرفضون القول بأنه مرض نفساني او جنون الهي ، ثم ينتقلون الى ما رآه الحكماء والأطباء من اليونانيين ، ويقررون انه اذا كان المراد بالعشق « افراط المحبة ، وشدة الميل الى نوع من الموجودات دون سائر الانواع فليس اذاً احد من الناس يخلو منه » حتى اذا وصلوا الى فكرة « الشوق الى الاتحاد » بعد ان بينوا رأي من يرى ان « العشق هوى غالب في النفس نحو طبع مشاكل في الجسد ، او نحو صورة مماثلة في الجنس » ، نراهم يتقبلون تلك الفكرة ، ويأخذون بها على انها هي الراجحة في بيان ماهية العشق .

ومن ثم يعمدون الى بيان انواع النفوس المتجسدة ، وانواع معشوقاتها ، لان « الاتحاد هوى نفساني وتأثير روحاني » هذا و« من شأن النفوس ان تتبع أمزجة الأبدان في اظهار افعالها واخلاقها ومعارفها ، وبخاصة ما كان أغلب منها في المزاج ، وأقوى في اصل التركيب » .

وما مبدأ العشق وأوله ، إلاَّ نظرة او التفات نحو شخص من الاشخاص « فيكون مثلها كمثل حبّة زرعت ، او غصن غرس ، أو نطفة سقطت في رحم بشر . . . » ويمتد الحبُّ مع الزمن ، بين العاشق والمعشوق ، باستنشاق هواء

واحد ، تتم به حياة البدن لكل منهما . ومن شأن النفس ان تتبع مزاج البـدن في اظهار افعالها واخـلاقهـا . والعلة في محبة شخص لشخص دون سائر الأشخاص تكمن في ضرب من الضروب الموافقة من بعض لبعض وقد ينجم تغير العشق عن تغيّر ما يظنه الناس من ان العشق لا يكون الا للاشياء الحسنة فحسب ، فانه وهم لا نصيب له من الصحة . فالمعشوقات « فنون » متعددة لا يرقى اليها حصر . والعلة في تعددها وتنوُّعها ، انما هي « الاتفاقات » التي بين العاشق والمعشوق . ومذ كانت الموجودات بعضها عللاً وبعضها معلومات ، ومنها اوائل وثوان ، فقـد « جعلـت الحكمة الإلهية والعناية الربانية ، في جبلة المعلولات نزوعاً نحو علاتها ، واشتياقاً اليها وجعلت ايضاً في جبلة علاتها رأفة ورحمة وتحنناً على معلولاتها ، كما يوجد ذلك في الآبـاء والامهـات على الاولاد ، ومـن الكبـار على الصغـار ، والاقـوياء على الضعفاء . . . » ثم ينتقلون الى انواع الحب ، وتنوُّع المحبوبات ، فيرونها اكثر من ان تحصى ، منها : محبة الامهات والآباء للأولاد ، ومحبة الرؤساء للرياسات ، ومحبة التجـار لتجارتهـم ، ومحبـة العلماء والحكماء لاستخـراج العلـوم ، ومحبـة البـر والإحسان ، واخيراً محبة ابناء الجنس وما يسمى العشق . . . وهذا هو الباعث على الفضائل ، ولولاه لخفيت ، وبهذا وحده يكون العشق « فضيلة ظهرت في الخليقة ، وكلمة جليلة ، وخصلة نفسية ، عجيبة » .

ثم يعمدون الى بيان صفات النفس المحبة كانصراف الحب الى محبوبه ، واهماله كل ما عداه وشوقه الى ما يحب فاذا بلغ حاجته من الاستمتاع به مله ، وتغير عليه ويستثنى محبو الله من الصفة الأخـيرة ، لأن « لهـم كل يوم وبـلا غاية ونهـاية من محبوبهم قربة ومزيداً » .

والغاية من وجود العشق في جبلة النفـوس تنبيههـا من نوم الغفلـة ، ورقـدة الجهالة ، ورياضة لها ، وتعريج لها ، وترقية من الأمور الجسمانية المحسوسة ، الى الأمور النفسانية المعقولة لأن النفوس الوامقة تحتفظ بالرسـوم والصـور المعشوقـة ، وتتحد بها ، وتبقى منطبعة فيها ، منقوشة على صفحاتها ، حتى لتجـد بعـد تغـير المعشوقات أنها لا تزال تحتفظ بالجوهر ، وتحيا به وحدهـا ، وترتـاح من عنائهـا ،

« ومعاناة صحبة غيرها واقسى جهالة » هي أن يبتلي المرء بعشق شخصي ، ويمر بتلك الآلام ، ثم لم تنتبه نفسه من نوم غفلتها ، ويُبتلى بعشق شخص آخر وآخر حتى يضل طريق هداه . هذا وافضل الناس من يتشوفون الى الخالق فيتعلقون به ويرتاحون اليه ويجهدون في التشبه به في صنائعهم « والاقتداء به في أفعالهم ، قولاً وفعلاً ، وعلماً وعملاً » ويزهدون في الدنيا و« يشتاقون الى الترقي في الملكوت السماوي والذوبان في الخالق ومن الواضح ان فلسفة اخوان الصفاء تستمد غذاءها من التربة الثقافية العربية في جانب ، ومن الاغريق وافكارهم في الجانب الآخر ، والفكر التي يمكن اعتبارها جديدة انما هي ربطهم بين الحب الجسدي والابقاء على النوع وقد وفقوا اليها لأنهم حاولوا ان يكونوا موضوعيين وما قادهم الى تعليل الحب من وجهة فلكية ، تظهر بشكل أجلى وأوضح عند ابن سينا الذي عاصر اخوان الصفاء وكان متأثراً مثلهم بآراء الاغريق وفلسفتهم واتجاهات حكمائهم فرأى ان العشق « ناموس » عام شامل يخضع الكائنات كلها لضروب من التصرف ، شبيهة كل الشبه بتصرفات العاشق تحت وطأة حبه ، فوضع بوحي من هذه الفكرة « رسالة العشق » فالعشق مبدأ اساسي في الكون ، وعليه تقوم الحياة وما دام قائماً في « جبلة » الانسان وفطرته ، فلا معنى لتقييمه ، ولا سبيل الى البحث في وجوده ، او عدمه . وهو لا يختص بالانسان بل يشمل الموجودات كلها . وكل واحد منها ينطوي على « شوق طبيعي وعشق غريزي » لما فيه « كما له الذي هو خيرية هويته » أما مصدر ذلك الشوق الى الكمال ، فهو الشعور بالنقص الذي يخالج الكائن بمفرده ويجعله « غير مكتف بذاته » . وحكمة الله تقضي ان « يغرز فيه عشقاً كلياً ، حتى يصير بذلك مستحفظاً لما نال من فيض الكمالات الكلية ، نازعاً الى الايجاد لها عند فقدانها . »

وهذا يفيد ان للعشق في رأي ابن سينا ، مهمة خطيرة هي ايجاد الكمالات التي تتشوق اليها النفس حين تشعر بفقدها فليس يعرى شيء من هذه البسائط عن عشق « غريزي في طباعه » مما حدا بغاندي لأن يقول :

« الحب اساس كل حياة وقوة » والبشري يتميز عن الحيواني بقوة واحدة هي قوة

العقل وهو تبعاً لهذه القوة يعي اهدافه ويتألف في اختيارها حتى انه يؤخر اللذيذ ويقدّم المؤلم ، استجابة لفكرته وسيراً مع رغبة عليا فيه يصعب ادراكها على ضعاف المدارك والجديد لدى ابن سينا في بحثه عن العشق هو ان الحب يكون « باعتبار » فمن يحب باعتبار عقلي ، أرقى ممن يحب باعتبار « اللذة الحيوانية » حتى وان كان المحبوب واحداً .

ويفسّر أخيراً ما نجده اليوم « جاذبية » في العلوم الطبيعية ، بالعشق أيضاً ، فالكواكب متعاشقة ، وهي كائنات سماويّة ارقى من البشر . ومعشوقها هو الخير المطلق ،كما انه معشوق « النفوس المتأهلة » .

وتلك هي النزعة الصوفية التي تحولت من بعد إلى نظام فكري ، وفلسفة ، وطريقة في الحياة . . . والسلوك .

هذه معظم وأهم « النظريات » التي فُسِّرت بها ظاهرة « العشق » وتلك هي أهم النتائج التي انتهى اليها البحث ، اما التجارب الخاصة ، والخواطر ، والأحاسيس ، فإنها اكثر من ان تحصى . وهي المبثوثة في الأدب والشعر والمسامرات والقصص .

والحب اضطراريًا أم اختياريًا شغل حيزاً كبيراً من تفكير الناس والرأي يتجه بوضوح نحو القول بأنه خارج عن ارادة الانسان ، وليس له فيه يدٌ او حيلة

فقال يحيى بن اكثم عن العشق أنه « سوانح تسنح للمرء فيهتم بها قلبه ، وتؤثرها نفسه » .

وقال ثمامة : « العشق جليس ممتع ، وأليف مؤنس ، وصاحب مالك ، وملك قاهر . مسالكه لطيفة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائرة . ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآراءها ، وأعطي عنان طاعتها ، وقياد ملكها ، وقوى تصرفها . توارى على الأبصار مدخله ، وغُمض في القلوب مسلكه .

وقال المأمون ، وكان من كبار المفكرين :

- إذا امتزجت جواهر النفس بوصل المشاكلة ، نتجت لمح نور ساطع ، تستضيء به بواصر العقل ، ويتصور من تلك اللوامح ، نور خاص بالنفس ، متصل بجواهرها يسمى عشقاً .

ويروى عن يحيى بن معاذ ، وهو من كبار الفقهاء في الدين ، أنه قال : « لو كان إليّ من الأمر شيء ، ما عذبت العشاق ، لأن ذنوبهم ذنوب اضطرار لا ذنوب اختيار » .

وقال الجاحظ :

« العشق داء لا يملك دفعه وهو داء يصيب الروح ، ويشتمل على الجسم بالمجاورة ، كما ينال الروح الضعف من البطش . والوهن في المرء ينهكه ، وداء العشق وعمومه في جميع البدن ، بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم ، وصعوبة دوائه يأتي من قبل اختلاف علله » .

بيد أن هذه الفكرة ، فكرة اضطرارية الحب ، وأنه « داء » لا شفاء منه ، ترقى الى عهود الحب العذري ، الى الجاهلية ، الى ثقافة الأعراب ، والرواة الذين أوردوا من كلام الأعراب في هذا الموضوع ، يتفقون على هذه القضية ، وهي أن العربي كان يجد نفسه « عاشقاً » ولا يعرف كيف ، ولا يجد السبيل إلى التخلص منه واليك قارئي العزيز نبذاً ذهبت مذهب الجاحظ وجرت على هذا المجرى ونحت نحوه .

قال اعرابي : « العشق أعظم مسلكاً في القلب من الروح في الجسم ، وأملك بالنفس من ذاتها . بطن وظهر ، فامتنع وصفه عن اللسان ، وخفي نعته عن البيان ، فهو بين السحر والجنون ، لطيف المسلك والكمون » .

وقال أعرابي آخر في وصفه : « بالقلب وثبته ، وبالفؤاد وجبته ،وبالأحشاء ناره ، وسائر الأعضاء خدامه ، فالقلب من العاشق ذاهل ، والدمع منه هامل ، والجسد منه ناحل ، مرور الليالي تجدده ، وإساءة المحبوب لا تفسده » .

وقالت أعرابية : « ليس الهوى إلى الرأي فيملكه ، ولا إلى العقل فيدركه » .

وتلك هي فكرة القدرية التي كان يؤمن بها العرب الأقدمون ، ويفسرون بها كل أمر يحدث ولا يد للإنسان فيه ، هذا وقد خاض رجال الفقه والدين في موضوع الحب قدراً من الأقدار وحدب القضاة والولاة والأمراء وحتى الخلفاء على العشاق ، وإذا أنت فكرت في تلك الخصومة التي نشبت بين حماة الشريعة وحماة الفكر ، أو بين الفقهاء والفلاسفة فأدلى أهل الشرع بدلوهم في قضايا العشق من وجهة النظر الشرعية على الأقل فابن داود الظاهري تطرق الى البحث في الحب فكان أول فقيه تناول العشق والمطلع على أقوال الحكماء فيه .

وجاء بعده ابن حزم الاندلسي فوضع « طوق الحمامة ، في الالفة والالاف » ثم جعفر بن احمد بن الحسين السراج وأبو عبد الله شمس الدين بن حريز الزّرعي المعروف بابن قيم الجوزية ، فوضع « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » . و في العهد ذاته وضع ابن أبي حجلة المغربي « ديوان الصبابة » .

أمّا العلامة « الشيخ داود الانطاكي » فوضع « تزيين الأسواق ، بتفصيل اشواق العشاق » واعتمد فيه كتاب السراج .

وهؤلاء الفقهاء لم يأتوا بجديد في درس الحب بل جمعوا ما قيل فيه ، ورووا ما تناهى الى اسماعهم من احاديث العشاق واخبارهم ، وفيهم من افتن في ترتيب ابواب موضوعهوفيهممن عني بذكر تجاربه الشخصية في الموضوع فكان اكثر ذاتية من غيره ممن عاصر . وهؤلاء الفقهاء في حديث الحب عنوا به لبيان الرأي الشرعي في مسالك العشاق والتأثر بالصوفيين ومحبتهم للذات الالهية والاسترسال مع العاطفة الجمالية التي تأنس بالحب وذكرياته وتجاربه . وأياً كان السبب فانه يشير الى حياة فكرية ناشطة وتأمل في احوال الناس وسير التاريخ .

***

فالفلاسفة قد عنوا بـ « ماهية الحب » و« الغاية من وجوده » والفقهاء ورجال

الدين غاصوا وراء اسبابه ودواعيه وبيان علاماته ومراتبه ، كما جهد البيانيون من قبلهم في ذكر اسمائه وتفصيل معاني الكلمات الدالة عليه :

كان النقاش يدور حول ما اذا كان « حسن المحبوب » الخارجي ، او شكله ، او جمال جسمه ، بقول مختصر ، هو الباعث على الحب ، الكامن وراء العشق . ووضع ابو إسحاق الحصري مؤلف كتاب « زهر الآداب » دعاه « المصون في سر الهوى المكنون » .

والخلاصة هي ان حسن الشكل أعجز من ان يفسر الحالات الغرامية جملة وتفصيلاً ، لان في كثير من هذه الحالات ما يدحض نظرية الحسن ، ويجعلنا إزاء لغز لا يدرك كنهه ، ولا يسبر غوره .

كان البدوي القديم يقول مثلاً :

تغلغل حب عثمة في فؤادي ... فباديه مع الخافي يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ... ولا حزن ولم يبلغ سرور

ويقول ابن حزم : « . . . ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية ، لوجب الاّ يستحسن الا نقص من الصور » .

وكان ابن قيم الجوزية موفقاً في بيان هذه الناحية اعظم التوفيق ، اذ قال :

إنّ « الملاءمة » بين المحب والمحبوب من « اقوى أسباب المحبة » وهي : اصلية وعارضة فالملاءمة الأصلية « اتفاق اخلاق وتشاكل ارواح » كما قيل :

وما الحبّ من حسنٍ ولا من ملاحة ... ولكنه شيء به الروح تكلف

«فالعشق لا يقف على الحسن والجمال ، ولا يلزم من عدمِهِ عدمُهُ ، وانما هو تشاكل النفوس وتمازجها في الطباع المخلوقة فيها . . . » وداعي المحبة وباعثها إن كان غرضاً للحب لم يكن لمحبته بقاء ، وان كان امراً قائماً بالمحبوب سريع الزوال والانتقال ، زالت محبته بزواله . وان كان صفة لازمة ، فمحبته باقية ببقاء داعيها ، ما لم يعارضه معارض يوجب زوالها ، وهو اما تغير في حال المحب ، او أذى من

المحبوب ، فإن الأذى إمّا أن يضعف المحبة او يزيلها » .

ويضيف ابن الجوزية على ذلك ، ان المحبين انقسموا في النظر إلى هذه الناحية الأخيرة قسمين ، ففرقة قالت : ليس بحب صحيح ما يزيله الأذى .

وفرقة قالت : بل الأذى يزيل الحب، فان الطباع مجبولة على كراهة من يؤذيها ، كما ان القلوب مجبولة على حب من يحسن اليهـا .

ويفصل الفقيه أخيراً في هذه القضية على النحو الآتي : « يجتمع في القلب بغض أذى الحبيب وكراهته ، ومحبته من وجهٍ آخر ، فيحبه ويبغض أذاه . وهذا ما كشف عنه ابن الدمينة في قوله :

لئـن ساءنـي ان نلتنـي بمساءةٍ — فقـد سرّنـي اني خطـرت ببالك

والمشكلة التي أراد مفكرو اهاتيك العصور حلها ، وضعت بشكل مغلوط ـ فيما يبدو ـ فعسر عليهم النفاذ الى موقف يشعرون معه بالطمأنينة فهذا أبو الهُذَيل العلاّف يقول مثلاً : « لا يجوز في دور الفلك ، ولا في تركيب الطبائع ، ولا في الواجب ، ولا في الممكن ، ان يكون محبٌّ ليس لمحبوبه اليه ميل » . وذلك ما تقرّر لدى الجميع تقريباً ، من زاوية النظر . ولكن الوقائع تشير صراحة الى حالات لا يكون الحب فيها متبادلاً ، فما سر ذلك ؟

تلك هي المشكلة ؛ أما حلها فلا يمكن أن نقع عليه بشكل عام شامل . وانما يجب الرجوع إلى كل حالة لا يكون الحب فيها متبادلاً ، ودرسها على حدة سواء عند المحب وعند المحبوب . والتحليل النفسي وحده ، هو الذي يبسط أمام أعيننا ما يبدو لنا خفيًّا في الشكل العام .

يحدثنا الرواة ، ان امرأة قالت تعاتب زوجها : « أسأل الذي قسم بين العباد معايشهم أن يقسم الحب بيني وبينك » ثم انشدت :

أدعـو الـذي صرف الهوى — منـي إليك ومنـك عنّي
ان يبتليك بمـا ابتلاني ، — أو يسـلّ الحـبّ منّي

هذه احدى المشاكل الزوجية ، وتحليلها فيما نرى ، ان تلك المرأة اطلعت زوجها على كل ما تضمره نحوه من شغف وتعلق ، حتى أصبح يأخذ حبها اياه أخذ المسلّمات التي لا يرقى اليها شك ، فراح يتصرّف على أساس من هذا اليقين الذي أودعته تصرفات زوجه في نفسه ، ومنه أفضى الى قلة الاكتراث بها .

وشبيه بموقف هذه المرأة ، موقف ذلك الرجل الذي قال :

فيا ربّ إن لم تقسم الحب بيننا بشطرين فاجعلني على هجرها جلدا
واعقبني السلوان عنها ، وردّ لي فؤادي من سلمى ، أُثبكْ به حمدا

وذلك يعني ان الحب ـ في وجهة النظر العصرية ـ « حالات نفسية » وأسبابه ودواعيه تختلف باختلاف كل حالة ، ولا تضبطها في حقيقة الأمر ، قاعدة او نظرية شاملة .

***

. . . وينتقل الأقدمون إلى درس علامات الحب فيذكرون اول ما يذكرون ، فقراتٍ من كلام الأعراب في هذا الشأن ، وكلام الأعراب يوضح « التجربة » الإنسانية أبلغ إيضاح ، ويصفها وصفاً يبلغ حد الإعجاز في دقته وصفائه ، على ما فيه من طُبعيَّةٍ وبساطة وايجاز .

هناك مثلاً ما يروون عن اعرابية تصف شعورها عن العشق وعلاماته ، انها قالت : « العشق جلّ ان يُرى ، وخفي عن الورى ، فهو كامن في الصدور ، كالنار في الحجر ، ان قدح اورى ، وان ترك توارى » .

ذلك هو العشق بوصفه ظاهرة ذاتية داخلية ؛ أما علاماته الخارجية فهي كما ذكر الشيخ داود الإنطاكي « أحوال يتصف بها البدن ، كتغير الألوان ، والعينين ، وتواتر النبض والخفقان » ، وللعاشق أحوال تدل على عشقه أهمها فيما يذكرون :

كالارتياح إلى ذكر اسم المحبوبة واللهج بها ومحبة . كل ما ينسب إليها ويتعلق بشخصها من الديار الى الأحجار ، إلى . . . التشبه بالمحبوب في الأقوال والافعال ،

والميل إلى ما يحبه والتوافق من بعيد بين المحب والمحبوب في المرض والفرح والغمّ . . . وبذل النفس ، والسخاء على المحبوب . الغيرة للمحبوب وعليه . واستحلاء ما يستحليه المحبوب من مظاهر مادية في الأثاث واللباس والحلي ونحوها ، والتخلق بالأخلاق التي يأنس بها (فكل ما يفعل المحبوب محبوب) . ثم التهيب الذي يشعر به المحب اذا لقي حبيبه . الانقياد لامر المحبوب والشعور بقصر الوقت مع المحبوب ، وطوله مع غيره وحب الوحدة والانس بالخلوة ، واعتزال الناس ، وشعور المحب بجمالات الطبيعة ، وتعاطفه مع الكائنات الصامتة وامتداد النَفَس ، وتردّد الأنفاس ، وكثرة التنكر . . . غير ان هذه العلامات لم تكن موضع عناية الناس به في تلك العهود الا لما كان يرافق الحب في مجتمعاتهم من « كتمان » عند المحبين من جهة ، وفضول شديد عند الآخرين من جهة ثانية . وهذا يظهر جلياً في أحاديث الشعراء عن « العذّال » فكان المحب يجهد في الكتمان ، والناس يجهدون في الاطلاع على اسراره واذاعتها ، مما أفضى الى هذا الجو في بيان علامات الحب وتدارسها والظاهرة الثانية « تشوّف » الناس إلى تبين الصدق من الكذب في العواطف ، اذ كان العاشق الصادق يحظى برعاية مجتمعه وعطفه ، ويصبح ذا حظوة في عيون الناس تقرّ به من قلوبهم وتحملهم على بذل ما يمكنهم من مساعدةٍ دونه ، لتخفيف ما يعاني من بلاء وكان الكتمان أعمق تأثيراً واكثر ظهوراً فالبوح ليس من طبيعة المرأة أساساً . ولذا فنحن نجد ان هذه العلامات التي اهتدى اليها « مفكروا الحب » انما قبسوها من تجاربهم من الشعراء والعشاق.كقول الشاعر :

بكِ ما بنا ، لكن على مضضٍ   تتجلدين وما بنا جَلَدُ

وقول الآخر :

كلانا سواء في الهوى غير انها   تجلّدُ أحياناً ومالي تجلُّدُ

وقول عروة بن أذينة :

إن التي زعمت فؤادك ملّها   خلقت هواك كما خلقت هوى لها
فيك الذي زعمت بها ركلاكما   يبدي لصاحبه الصبابة كُلّها

وهذه الحالات تفيد ان « تعبيرات » المرأة عن عواطفها ، انما هي تعبيرات صامتة ، تظهر في النظرات ، واللفتات ، والهمسات وما الى ذلك حتى لتتألف من مجموع هذه الاشياء « لغةٌ » يتفاهم بها المحبّان ، ولا يفهمها غيرهما في أغلب الموقف والحالات . والمرأة تتقن هذه اللغة أكثر من الرجل ، وتحيط بدقائقها واسرارها ، وتنفذ إلى معانيها بشكل عجيب رائع ، ولذا ، لا يمكن أن يخفى على امرأة سر رجل ، بينما تخفى معظم اسرار النساء على معظم الرجال وما ذلك الا سلاح الطبيعة الخفي الذي سلحت به المرأة لتكون هي الملاحَقَة لا الملاحِقة .

أمّا الأقدمون فيميلون في دراسة الموضوعات الأخرى المتصلة بالحب إلى تقسيم العالم بين علوي وسفلي ، وتقسيم النفوس الى سماوية علويّة وحيوانية شهوانية فالعالم العلوي يتحرّك بدافع من محبته لله ، والعالم السفلي يتحرّك بدافع من محبته ايضاً ، ولكنها لا تتجه نحو الحق ، نحو الكمالات ، وانما ترمي الى الملاذ ، والنفوس السماوية تنصرف بحبها نحو المعارف واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل ، والنفوس السبعية منصرفة إلى التسلط والبغي والعلو في الأرض والتكبر ، والنفوس الحيوانية تنصرف إلى المآكل والمشارب والمناكح ، وكثيراً ما تجمع حب التسلط وحب الملاذ معاً .

وكان من الطبيعي ان يتنوّع « الحب » ذاته بأنواع هذه النفوس ، فيكون علوياً سماوياً لدى قوم ـ وهؤلاء هم الصوفيون ـ وسبعياً لدى آخرين ، وهم رجال السياسة والرئاسة والساعون وراء الحكم والولاية ، ويكون أخيراً حيوانياً لدى الذي امتلكتهم شهواتهم الأرضية .

ثم كان من نتائج هذه الطرائق في التفكير ان شاع التصّوف ، وانتشرت المفاسدة في المجتمع مما دعي فيما بعد « بعصر الانحطاط » .



الفصل الثالث

الجاهلية والحب

كانت المرأة العربية تبعث في الرجال عاطفة ذات لون سحري لا سبيل الى وصفه سوى انه إعجاب تمازجه الرقة ، او احترام ينقلب بفعل الانوثة الى ولع وتعلق ، دون ان يخسر طبيعته الجدية الوقور . والجد في الحب يعني « الكآبة » و« الحنين » و« الاستغراق » في دنيا الاطياف والذكريات ، والمنى والأحلام .

وما اغاني الحب في العصر الجاهلي سوى مجموعة من الشعر الذي يملأه الاسى على ما فات ، فكان الشاعر يتغنى بعاطفة قد انقضت أو سعادة أفلتت ، كلما أظل رحيل محبوبته ، ويوقع نغمة لاهفة أسيانة يعطل جمال أثرها في النفس تكرارها في بدء كل قصيدة ، ولكنها تظل مليئة بالحياة لان منشئها يملك زمام الكلام .

غير ان هذا التعليل لا يصمد أمام النقد ، فليس كلّ من ملك زمام الكلام ، يستطيع أن يودع شعره حياة ، فضلاً عن ان يملأه بها .

والصحيح هو ان حب الجاهلي كان موحى من المرأة ، مفروضاً عليه ولكن بملء اختياره وطواعيته ، او على غير وعي منه ، من قبل « تلك » التي كان يتصوّرها وهو ينظم أشعاره ثم ان الحب الذي توحيه المرأة يتسم دوماً بالجدّ ، ولا يكون ابداً عابثاً او هازلاً او منصرفاً الى اللهو ـ ولا سيما في حالة غيابها ـ وانما يصرف الذهن إلى التأمل العميق ، ويستقطب قوى النفس جميعها حتى تتجمع حول صورة المحبوبة . والنساء ـ وذوات الشخصية القوية منهن يملكن من اسرار الحب ما لا يملكه الرجال ، ويعرفن من طرائق إثارته ما لا يحلم الرجال بمعرفته ، فهن لشدة براعتهن ، يوافقن

على امر يعارضنه كأسلوب في معارضته ، وترشدهن قلوبهنّ إلى حقائق لا يتاح لعقول الرجال بلوغها عن طريق التفكير والمحاكمة ، ويخلقن من الاجواء ما يستنزل المرء عن صموده ، ويقضي على مقاومته ، فلا يلبث ان يستسلم وكأنه في حلم ، او مع طيف من الاطياف ذلك أن الحياة التي تغمر قصائد الحب في الجاهلية ، انما هي في الواقع ، حياة المرأة المحبوبة . وإذا كان ذلك الشعر يتسم بالكآبة ، فلأن الاسى ألصق بطبيعة المرأة ، وأعلق بحياتها الباطنة ، وبه تؤثر في الرجال ، وعن طريقه تلج قلوبهم ، وتقيم في حبّاتها ، ثم لا تبارحها اذا هي تنوعت ، وتأرجحت ، وخلطت الجد بالهزل ، والألم باللذة ، والعذاب بالامل ، والسخط بالرضا . وهذا هو سر تقلب المرأة الواعية من شخصيتها ، المكتملة في انوثتها ، القوية بروحها وسحرها ، فإن مثل هذه المرأة تعرف ان الإقامة على حالة واحدة من حالات النفس ، تحمل السآمة والملل إلى قلب الرجل ، وتصرفه عن حبها ، وتؤدي إلى ضيقه بها ، وتمرده آخر الأمر على سلطانها في نفسه وذلك يتضح في هذا البيت الذي ورد في قصيدة لقيط بن يعمر الأيادي .

جرّت لما بيننا حبل الشموس فلا يأساً مُبيناً أرى منها ، ولا طمعا

غير ان طرائق الإحساس لم تكن لدى الجاهليّ على وجه الإجمال واضحة جلية فمناخ الحضارة الجاهلية الروحي شيء ، ومناخ الحضارة شيء آخر . ولقد كان الشريف الرضي يتمنى العودة إلى العهد الجاهلي ، لما يشيع فيه من صدق وحمية وإباء :

ترى الجاهلية أحمى لنا وأنأى عن الموقف الأرذل
فلولا الإله وتخوافه رجعنا إلى الطابع الأول

ولم تختلف المرأة نفسياً ، وظلت تتصرف وتوحي العواطف نفسها التي كانت توحيها ولم تفترق شخصيتها في عصر الشريف الرضي بشيء قط عن شخصية جدتها في الجاهلية .

وأعجب ما نلاحظ في إحساس الجاهلي هو ذلك التمركز في العاطفة الغرامية ،

والوقوف عندها ، والإصرار العجيب في الثبات عليها ، فهو لا يمل ولا يسأم ولا يكل ، ولا يخالجه أدنى فتور ، أيا كان البلاء الذي يتعرض له ، ومهما استعصى على دائه العلاج ! ولولا هذا التمركز والثبات لكان في غنى عن الأطلال والرسوم والبكاء عليها والوقوف المتحسر إزاءها ، ولكان في حل من « فاتنته » بعد أن شطت بها الدار ، وعفت منها الآثار . قال بشر بن أبي خازم .

تعنى القلب من سلمى عناء   فما للقلب إذ بانت ، شفاء
وآذن آل سلمى بارتحالٍ   فما للقلب إذ ظعنوا ، عزاء

ولكن يبدو ، فيما يبدو ، أن هذا الحب الباكي الحزين ، تحول إلى عادة في طبع الجاهلي ، إلى « مادّة » ادمن عليها إدماناً يفوق ادمان السكير على الخمرة ، فإذا قنط من واحدة ، ارتد إلى أخرى ، وإذا لم توافه هذه هجرها إلى تلك ويظل هذا شأنه إلى أن يشيب ، وعند ذاك يأخذ في تذكر صباه ، وليالي أنسه ، ومرابع لهوه . والغريب في أمره أن كل انثى تفرض عليه عاطفتها وتوجه مسلكه فهو لا ينتقل إلى غيرها إلا مكرها ، ولا تتصباه غيرها من النساء إلا بعد يأس مرير وعليه اللوم وعليه الاعتذار والاستعطاف بينما لا نسمع للمرأة صوتاً إلاّ عند موت من تحب ، ولا نجدها تمدحه إلا راثية مؤبنة ، أو مشجعة محمسة في ساحة الوغى .

تلك ظاهرة تؤيد قوة الشخصية لدى المرأة العربية ، فهي إذ تحب ، إنما تكتم عن محبوبها ، وعن الناس ، وحتى عن نفسها حقيقة ما يعتمل في سريرتها حتى بعد ممات فتى احلامها البطل فيكثر النواح والمراثي ويبدو ما كان يعتلج في النفوس من حب ماله من مثيل . وهذا ما جعل الحضارة الجاهلية خلواً من كل شذوذ جنسي . فلم تنحدر قط الى الدرك المشين الذي انحدرت اليه حفيدتها مدنية بغداد على يد الأعاجم بما انتشر فيها من الشذوذ الجنسي ، او مدنية أثينا التي سبقتها ، وهي التي أباحت تلك الضروب النابية من العلاقات بين الرجال والغلمان ، والنساء والفتيات .

هذه الظاهرة في حياة الجاهلية تشير الى سلامة تلك الحضارة ، وخلوصها من شوائب الانحلال والفساد ، وأصالة اتجاهها الانساني في نفوس القائمين عليها ،

والمبدعين من أبنائها ، والمتقلبين في مناخهـا . ثم تشـير الى سر ديناميتهـا ، ومثـار تحركاتها ، ومبعث تطلعاتها ومثلها الأخلاقية العالية .

فتحولت الى « قيمة معنوية » كالجمال ، او الحرية ، او السعادة ، او العدالة ، وتحول الحب الى تعلق بتلك القيمة ، وتضحية في سبيلها ، وإقدام على المخاطر من اجلها ، وجهاد مرير للنفس تلبية لما تقتضيه ، واستجابة لما تملي وتنشد ، ونشـأت وفقاً لذلك الفروسية والهوى العذري والافتتان بالجمال الأخلاقي في سـير الرجـال والنساء ، والدعوة اليه ، وتربية الجماعات والأفراد على أسسه والتدرب على تحقيقه في حياة الناس والتصوف الديني الذي راح يتسلل في حلقات ماراً بأبي العتاهية إلى ان يصل للغزالي ، وابن الفارض ، وابن العربي الاندلسي والظاهر ان جسد المرأة . كان يلعب دوراً اساسياً في ايقاظ الرجال على معاني الجمال وصوره ومثله في جميع الحضارات الانسانية الأولى . ومنه انتقل الفلاسفة المفكرون والفنانون الى غيره من مظاهر الجمال في الطبيعة والنفوس والمنازل والأبنية والأثاث ، حتى اذا اتسعت مدارك الانسانية بفعل التجارب والأحداث ، انتقلت من الأجسـاد الى الأرواح - ولكن ببطء متناه - وراحت تفتنّ بعد ذلك في تصور هذا النوع وتصويره .

والحب الخالص الصحيح إنما ينبعث في النفس عن احساسها الخـاص بجمال المحبوبة او . . . هكذا يظهر على الأقل ، من أغاني الشعراء وقصائدهـم ، منـذ عرفت الانسانية الحب الى يومها هذا .

وكان إحساس العاشق بجمال حبيبته ، يتحول على يد الحب ، الى ضرب من العبادة . وتلك هي بداية الوثنية التي نجدها لدى عامة شعوب الارض ، ولم يوفق بعد كثير منها الى نبذها والقضاء عليها . وما كان العرب في جاهليتهم الموغلـة في القدم . او تلك التي سبقـت الاسـلام ، ليشـذوا بذلك عن غيرهـم من شعـوب الارض ، فجسد المرأة ، على تنوع قسماته ، واختلاف اعضائه ، هو مدار احاديثهم الغرامية ، وأداة الوحي الكبرى لشعرائهم .

ولقد كان لجمال المرأة لدى كل شعب « طراز » يصفـه شعـراؤه ، ويتغنـى به

عشاقه ، ويرسمه مصوروه ، وينحت له التماثيل مثالوه ، ويسعى وراءه كبراؤه وتجهد النساء في تحقيقه .

وما قصيدة « اليتيمة » الاّ إحدى اللوحات القديمة لجمال المرأة الجاهلية ، ان لم تكن اقدمها إطلاقاً . وليس في قصائد الشعراء الآخرين ، على كثرتها ، سوى ترديد للاوصاف التي رسم بها صاحبها اميرته :

الوجه مثل الصبح مبيّض ... والشعر مثل الليل مسودّ
ضدانّ لما استجمعا حسنا ... والضد يظهر حسنه الضد
فكأنها وسنى إذا نظرت ... او مدنفٌ لما يُفق ، بعدُ
بفتور عين ما بها رمد ... وبها تداوى الاعين الرمد
والجيد منها جيد جؤذرة ... تعطو اذا ما طالها المرد
ولها بنان لو أردت له ... عقداً بكفك ، أمكن العقد
وكأنما سقيت ترائبها ... والنحر ماء الورد اذ تبدو
وبخصرها هيف يزينه ... فإذا تنوء يكاد ينقدّ
ما عابها طول ولا قصر ... في خلقها ، فقوامها قصد

هذه الأوصاف تتكرر لدى جميع الشعراء الجاهليين ، واكثر الإسلاميين ولا تختلف بين عصر وآخر ، أو شاعرٍ وشاعر ، إلا بالألفاظ ، بل ربما تكررت ألفاظها فلا يفترق بعضها عن بعض إلا في السياق .

وخلاصة ما يلوح وراء هاتيك الأوصاف أن الحب في جاهلية العرب إنما كان ينبعث ويتحرك في النفس ، عن تأثر الحواس بجسد المرأة وإشعاعاته ، وقلما يتعدى هذا الطور أو يتجاوزه ، في الظاهر من أمره . بيد أن المحبوبة في نظر من يحبها ليست هذا « الجسد » الذي يراه كل الناس ، ولا هي مجرد أنثى كغيرها من الإناث ، وإنما تتحول - بسحر الحب - إلى « كائن » آخر ، يتميز بمعانٍ لا تعرفها الكائنات ، أو لا يراها المحب في سائر الكائنات ، ولكل حركة من حركاتها أثر خاص في نفسه ، كما أن لكل كلمة من كلماتها وقعاً يتجاوز وقعها العادي بمراحل ، ويفوقه بمراتب ، لدى آخر لا يحبها مثلاً ، أو لا يصرف إليها اهتمامه .

ولقد كان الجاهلي يؤخذ بضروب من حركات المرأة تتعدى جمالها الظاهر ، لتعبر عن حياتها الخاصة ، وتصور شيئاً ما بعض طباعها وأخلاقها ، كطيب رائحتها ، ومشيتها ، وحليها بالإضافة الى ما اعتاده أهل هذا العصر من التأثر بنظراتها وابتساماتها .

يقول الأعشى في وصف المشية :

غرّاء فرعاء ، مصقول عوارضها   تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوجل
كأن مشيتها من بيت جارتها   مرّ السحابة ، لا ريث ولا عجل

ويقول امرؤ القيس :

وإذ هي تمشي كمشي النزيف   يصرعه بالكثيب البهر

أما طيب الرائحة التي تنبعث من الحبيبة ، فما كان ليسمو على تأثيره شيء آخر في نفس الجاهلي فقال امرؤ القيس :

اذا قامتا تضوع المسك منهما   نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وقال آخر :

وهي لو يُعصر من أردانها   عبق المسك لكادت تنعصر

والأمثلة على ذلك كثيرة اوردنا منها القليل لتكون خير دليل على روح ذاك العصر ووحيه وتأثيراته . والمترفة من النساء هي التي كانت تفتق الجاهلي وتخلب لبَّه فهي « نؤوم الضحى » تسري طمأنينة عيشها الى نفسها ، وتأتلق في جمال وجهها مما يهيب ببطلها لأن يركب اقسى المخاطر واضراها للوصول اليها وقد ظلت هذه الصفات « الجسمانية » في المرأة مثار اعجاب العربي وموضوع غزله ، ومحل رعايته واهتمامه ، إلى يومه هذا ، فهو لم يختلف بذوقه عن الجاهلي في شيء كثير ، وما زال تراثه القديم في هذه الناحية ، يعمل عمله في نفسه عن وعي منه وغير وعي .

وآية ذلك ان الأعراب الذين كانوا يفدون من البادية إلى دمشق وبغداد وسائر الحواضر العربية كانوا يصفون النساء وصفاً دقيقاً وكانوا يطرون جمالهن وصفاتهن ،

بما لا يختلف عما ورد في هذا الشأن لدى شعراء الجاهلية وحكمائها وكهانها وكاهناتها .

كما روى ابن عبد ربه : سئل أعرابي عن النساء وكان ذا تجربة وعلم بهن ، فقال : أفضل النساء أطولهن إذا قامت واصدقهن اذا قالت ، التي اذا غضبت حلمت ، واذا ضحكت تبسمت ، واذا صنعت شيئاً جودت ، التي تطيع زوجها ، وتلزم بيتها ، العزيزة في قومها ، الذليلة في نفسها . ملساء القدمين مملوءة الساقين ، لفاء الفخذين ، ناعمة الأليتين ، مهضومة الخصرين ، ملساء المتنين ، رخصة الكفين ، ناهدة الثديين ، حمراء الخدين ، كحلاء العينين ، لمياء الشفتين ، حالكة الشعر ، غيداء العنق . مما حدا بالمتنبي لأن يقول :

حسنُ الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حسن غير مجلوب
أفدي ظباء فلاةٍ ما عرفن بها ... مضغ الكلام وصبغ الحواجيب
ومن هوى كل من ليست مموِّهَةً ... تركت لون مشيبي غير مخضوب

ورده شعراء الاندلس ، وعشاق المغرب في اكثر ما قالوا ، ومعظم ما تغنوا به من أغاني الحب ، وظل يسود الحضارة ، ويتغلب على كل طراز في الجمال النسائي ، أنى انتشر الاسلام ، وحطت أقدام العرب وهذا التعلق بجسد المرأة جعل الحب الجاهلي مقصوراً في الظاهر ، على الرجل ، بمعنى أن الرجل حيث « يبكي » على الأطلال ، و« يتسلى » حين يعتريه اليأس ، و« يتذكر » و« يتحمس » « يئن » و« يتعذب » . أما « المحبة » فلا نجد لها أثراً في حضارة الجاهلية مع أنها هي التي كانت تصرف الرجال في السبل التي يسلكونها ، وتحملهم على المراكب التي يركبونها ، والمخاطر التي يخوضونها ، فعبلة وراء عنترة ، وخولة وراء زهير ، وفاطمة وراء امرىء القيس هذا ولم يكن جمالها الخارجي او تناسق جسدها هو كل شيء فيها وهو كل سحرها وفتنتها فلا بد ان يكون لدى كل « محبوبة » من مزايا الروح والعقل والقلب ما يمكنها من بسط سلطانها الأدبي او المعنوي على الذين يحبونها كمزايا المرأة الجاهلية في الجوانب الروحية والعقلية والعاطفية التي لوّنت الحب الجاهلي بتلك الألوان . وهي عزة النفس واحترام الذات على صعيد السلوك العملي ، والتوسل الى

تحقيقه بالاعمال والأخلاق التي تجعله واقعاً يفرض نفسه ، والتأدب بالآداب التي كانت تؤول بطبيعتها اليه ، من العفة ، الى الصبر على المكاره ، الى الترفع عن الدنية ، الى الاشفاق على الضعيف ، الى إلزام القوي بمادىء الشرف . . . وكان يغلف هذه المزايا في نفس المرأة العربية غلاف رقيق شفاف ناعم من الانوثة والسماحة الواعية ، والبشر والايناس مما جعلها مهابة حقيقية ، ويصبح الموقف حيالها متقلباً بين انجذاب في آن ونفرة في آن ولا تكاد تشعر بقربها منك حتى يخالجك الظن انها بعيدة وهي تصرفك خلال ذلك ، دون ان تشعر ، بما تهوى ، معتمداً على ملاحظاتها وتجاربها في صلاتك بها وردود افعالها لديك وهيبة المرأة معنى لا يتصل بأنوثتها اكثر مما هو متعلق على كرامتها في نفسنا ، وإشعاع هذه الكرامة في وجهها ، وطغيانها على شخصيتها .

لا لأنه يحبها وحسب ، بل لانها تفرض عليه احترامها ، واكثر ما يحمل الرجل على احترام المرأة ، شعوره بعفتها في اول منزلة ، ثم رقة طباعها ، وتألق شخصيتها وما كل قصة قرأناها عن المرأة آنذاك الا الدليل على رقة الطباع وأثرها في إثارة الحب ، وإيقاظ النفس على التضحية .

وكل ما أثر عن عشاق الجاهلية والبادية يشير الى رقة متناهية في طباع النساء ، واستجابة سريعة في قلوب الرجال لمثل هاتيك الرقة والى جانب ذلك الصفات المعنوية التي كانت تحرك الرجال الى الحب العظيم الذي يستحوذ على النفس حيث كانت تقوم « براءة المرأة » أو بساطتها البعيدة عن كل تكلف ، وهذه صفة من شأنها ان تجعل حب الجاهلي غاية في العمق والصدق ، وتحمله على التضحية ، فان قلوب الرجال تتأثر بالبراءة وتنشد البساطة ، ويستهويها عُريُ العاطفة حين تظهر مجردة عن كل زخرف في القول او العمل . . . هذا وصفة الاخلاص هي التي كانت تهيمن على الحب في الجاهلية وتلوِّنه بأبهى واكمل الوانه وكان إخلاصها هذا شبه تيار عاطفي يجرف كل ما في الحياة الاجتماعية والفردية من اعتبارات ، ويقوى ويندفع ويزخر بنسبة ما تقف التقاليد والحواجز دونه ، وأعجب ما فيه انه كان يثير في الرجال إخلاصاً يقابله ، ويرتفع الى مستواه ، حتى اذا تمكن منهم أوردهم موارد

الهلاك . . . وتلك هي قصة « شهداء » الحب الذين حفلت بأخبارهم سير الأقدمين ، وكثر عددهم في عشاق العرب المعروفين .

وكانت صفات العزة ، والرقة ، البراءة ، والإخلاص بالإضافة إلى الصفات الجسمانية الجمالية ، التي تتصف بها المرأة العربية هي العامل الأساسي في تطوير الحب الجاهلي ، ونقله من علاقة عادية بين الجنسين ، إلى محرك حضاري ، وقوة اجتماعية ضخمة في تركيز القواعد الاخلاقية والعمل بمقتضاها في الحياتين : الشخصية والعامة وكانت ايضاً الدعامة الأولى في جسم الحضارة الحالية والانطلاقة المثلى لما تحلت به المرأة عبر العصور التي تلت الجاهلية فمجنون ليلى قضى وجداً عليها فكان حديثاً في الحب لمن احبوا ومثلاً رائعاً على الوله بمن يهوى حتى درجات العبادة وإن قلباً هذه سماته لهو المثال الحي على صدق اللوعة والعاطفة والحب . . ومن أجمل ما قيل ايضاً في الحب ما صوره عنترة وغيره من مزايا وخلال حميدة وهذا القول :

لقد كنت ذا بأس شديد وهمة   اذا شئت لمساً للثريا لمستُها
اتتني سهام من لحاظٍ فأرشقت   بقلبي ولو استطيع رداً رددتها

انه الحب باعث البطولات ومغذيها وملهم الأبطال والشعراء ملاحم المجد بطوله وقولاً وعملاً . . . ولا غرو فالشعر الجاهلي على سجيته ناطق صريح وواضح لمسات الجمال الأولى التي آتت ثمارها فيما بعد في كل العصور ومن منّا من لم يطّلع على قصة ابن عجلان وقصة عروة وعفراء ؟ واليك قارئي مثالاً على ما قلنا هو مثال « عروة وعفراء » حيث قال جرير :

هل انت شافية قلباً يهيم بكم   لم يلق عروة من عفراء ما وجدا
ما في فؤادي من داء يخامره   إلا التي لو رآها راهب سجدا

وقصة عروة تتلخص في ان أباه مات وهو في الرابعة من سنيه ، فكفله عمه هصر ـ أبو عفراء ـ وعاش معها ، فألفها وألفته ، حتى اذا بلغ أشده سأل عمه ان يزوجه منها فوعده ذلك . ثم أخرجه الى الشام في تجارة له ، وقدم على هصر اثناء غياب عروة فتى يقال له « أثالة » من أسرته يريد الحاج ، وحدث ان بصر أثالة بعفراء

وهي حاسرة عن وجهها ومعصميها ، وكانت تحمل أداوة سمن ، وعليها إزار خز أخضر ، فوقعت من قلبه ، ولم يلبث ان خطبها وتزوجها ، ومضى بها الى البلقاء .

وفيما كان يمشي في الطريق ، أقبل عروة مع العير ، فرأى عفراء على جمل احمر في قافلة أثالة ، فعرفها من البعد ، وأخبر أصحابه . فلما التقيا وعرف الأمر ، بهت لا يحير جواباً . وحين بلغ الحي أخذه الهذيان والقلق ، وأقام اياماً لا يتناول قوتاً ، حتى شفّت عظامه ، وأصيب بالخبل .

راح أهله على الأثر يتنقلون من عرّاف لعراف ، ومن طبيب الى طبيب دون جدوى ، وعندما أحس بالضجر من اهله ، طلب اليهم ان يحملوه الى البلقاء . فلما حل بها وجعل يسارق عفراء النظر في مظان مرورها ، عاودته الصحة ، غير انه لقي من آل عذرة شخصاً نقل خبره الى زوج عفراء ، وكان هذا موصوفاً بالسيادة ومحاسن الاخلاق في قومه ، فلما أصبح جعلْ يتصفح الأمكنة حتى لقي عروة ، فعاتبه ، وأقسم بالمحرجات أنه لا ينزل إلا عنده ، فوعده ذلك ، وذهب مطمئناً . ولكن عروة عزم ان لا يبيت الليل ، وقد علم به ، فخرج ، فعاوده المرض ، فتوفي بوادي القرى ، دون منازل قومه .

ولما بلغ عفراء نبأ وفاته ، قالت لزوجها : قد تعلم ما بينك وبيني وبين الرجل من الرحم (القرابة) وما عنده من الوجد ، وان ذلك على الحسن الجميل ، فهل تأذن لي ان أخرج الى قبره ، فأندبه ، فقد بلغني انه قضى . قال : « ذلك اليك » فخرجت حتى أتت قبره ، فتمرّغت عليه وبكت طويلاً ، ثم أنشدت :

ألا أيها الركب المخبون ويحكم ... بحق نعيتم عروة بن حزام
فإن كان حقاً ما تقولون فاعلموا ... بأن قد نعيتم بدر كل ظلام
فلا لقي الفتيان بعدك راحة ... ولا رجعوا من غيبة بسلام
ولا وضعت أنثى تماماً بمثله ... ولا فرحت من بعده بغلام . .

وحين فرغت من شعرها ألقت نفسها على القبر ، وجاء من حركها فلقيها ميتة ودفنت بجانبه .

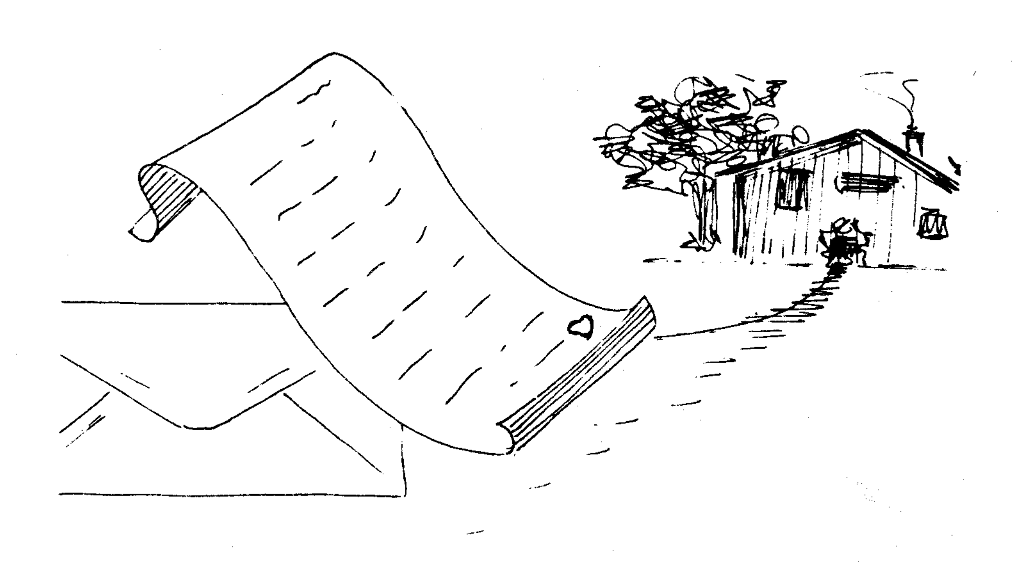
هذه الحكايات تصور لنا الحب في الجاهلية الأخيرة ، أروع تصوير ، وتعرض لنا حقيقته في أوضح أشكاله .

والعجيب في حب هؤلاء الجاهليين هو أنه كان ينمو ، ويقوى ، ويشتد ، كلما قويت « الحيلولة » بين المحبين ، ونمت ، واشتدت . ولا فرق بين أن تكون هذه الحيلولة ناشئة عن عوامل اجتماعية ، أو تدخل ظروف لا يد للإنسان فيها ، أو قيام وضع اقتصادي شخصي يفصل بين القلبين المؤتلفين . وما من حب نشأ في إطار الحضارة الجاهلية إلا ورافقته حيلولة على نحو من الأنحاء ، وكانت تلك الحيلولة مدار البحث والتأمل لدى العشاق . وذلك يجعل الحب الجاهلي يدور في جو فكري ، واتجاه أخلاقي ، وتيار شعوري تحل كلها محل « فلسفة » عامة ، يعتنقها أبناء تلك الحضارة . فما هي تلك الأفكار والأخلاق والأحاسيس التي كان ينمو الحب في وسطها ؟

***

رأينا في فصل سبق أن ثقافة الجاهلي كانت شفوية ، وأن شفويتها هذه جعلت الكلام المنظوم يطغى فيها على المنثور ، فكان الشاعر الجاهلي يجمع في شخصيته « المفكر » و« الداعية » و« السياسي » و« الحكيم الاخلاقي » . وهذا يعني أننا لا نملك من أدوات البحث عن الجو الفكري والاتجاهات الأخلاقية ، التي سادت العصور الجاهلية ، سوى أشعار الشعراء ، في أول منزلة ، وتليها الأمثال الشعبية السائرة ، فالوصايا التي كان يتوجه بها الآباء منهم للبنين ، فالخطب القليلة الباقية التي صحت نسبتها إليهم .





الفَصْل الرابع

بَنوعُذرَة وَالحُبّ

لم يكن العرب أقل الشعوب القديمة فهماً للحب ومزاياه وشغفاً به وعلوقاً بشراكه وإن قصرّوا ، في العصر الأموي وهو الذي يعنينا في كتابنا هذا ، عن تعليله وتحليله وفهم فلسفته .

فلقد ألَّفوا الكتب ونظموا الدواوين الشعرية الغزليَّة تمجيداً للحب و حثاً للاحداث على العشق . فهناك عشرات المؤلفين في هذا الفن من رجال العصر الاسلامي وهناك عشرات ، بل مئات الكتب الحبيّة التي ألفت في مختلف العصور « فقوت القلوب في أخبار المحب والمحبوب وكتاب عروة وعفراء ، وكتاب جميل وبثينة ، وكتاب كثير عزة ، وقيس ولبنى ، ومجنون ليلى ، وكتاب وضاح اليمن وام البنين ، وكتاب عمر بن ابي ربيعة ،وكتاب عاشق الكف ، وعاشق الصورة كلها اسماء لكتب حبيَّة مختلفة تحمل الينا أخبار العشاق والمغرمين ، وفيها الطريف المستحب والسخيف الموضوع . وقد وصل الينا بعضها والبعض الآخر لم تقع عليه عين . وهذه المصنفات ، وإن كانت غير مبوبة تبويباً علمياً ، او منظمة تنظيماً دقيقاً ، كما هي الحال في اكثر الكتب العربية القديمة ، فهي جامعة لمعظم الاخبار الحبيَّة المسموعة عن العرب وعن سائر الامم ، لا يستطيع القارىء بعد الاطّلاع عليها او على بعضها إلا ان يدهش لغرابتها وطرافتها كما سنرى .

والذي يدل دلالة صريحة على تقدير العرب لفضائل الحب الروحية ومزاياه

العالية اهتمام الرجال العظام منهم بالمحبين المتيمين وشفقتهم على العشاق وحث بعض ادبائهم الاحداث على العشق . سأل ذو الرئاشين أحداثاً من أحداث اهله : هل فيكم عاشق ؟ فقالوا: لا ، فقال : اعشقوا فإن العشق يطلق اللسان العيّ ، ويفتح حيلة البليد والمخبّل ، ويبعث على التنظيف وتحسن اللباس وتطييب المطعم ، ويدعو الى الحركة والذكاء وتشرُّف الهمة » .

والروايات كثيرة عن رجال العرب العظام الذين اشفقوا على العشاق . منهم المهدي وقد نمي يوماً اليه ان غلاماً شاباً له ذؤابتان كأنه قضيب فضة ، موجود في خلوة مع جارية في إحدى غرف القصر . ولما احضر الشاب بين يدي الخليفة ، فُهم انه كان يحب الجارية قبل بيعها الى امير المؤمنين . فجاءها معرضاً حياته للخطر لعله يحظى برؤيتها . وما كاد المهدي يسمع كلامه حتى امر بضرب عنقه واحضار سيف ونطع . فلما أُوتي بذلك وأُجلس الغلام في النطع تذكّر حبيبته وهاجت قريحته فراح يتغنى بها :

ولقد ذكرتُكِ والذي أنا عبدُه
والسيفُ بينَ ذؤابتي مسلولُ

فأطرق المهدي واغرورقت عيناه بالدموع ثم قال : يا غلام إئتني بإِزار، فأتي به فقال : الففهما به جميعاً . . . واخرجهما عن قصري . ففعل ذلك .

وروى ابو محمد بن حزم قال : « قال رجل لعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه . يا امير المؤمنين اني رأيت امرأة فعشقتها . فقال عمر : ذاك مما لا يملك » .

وروى الاصمعي عن عمر بن الخطاب ايضاً قوله : « لو ادركت عفراء وعروة لجمعتُ بينهما » .

وذكر التميمي في كتابه المسمىّ بامتزاج النفوس « أن معاوية بن ابي سفيان اشترى جارية من البحرين فأعجب بها اعجاباً شديداً فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها :

وفارقته كالغصن يهتز في الثرى
طريراً وسيماً بعدُ ما طرَّ شاربه

فسألها فقالت : هو ابن عمي . فردها اليه وفي قلبه منها ! . »

وجاءت جارية الى عثمان بن عفَّان تستعدي على رجل من الانصار لأنها كلفت بابن اخيه فخيّرَ الخليفة الانصاري قائلاً : « إما أن تهبها لابن اخيك او اعطيك ثمنها من مالي . فقال : اشهدك يا امير المؤمنين أنها له » .

وكذلك رووا أن أبا بكر الصديق بعث الى مولى إحدى الجواري المغرمات فاشتراها منه وبعث بها الى حبيبها وقال : « هؤلاء فِتَن الرجال وكم قد مات بهن من كريم وعطب عليهن من سليم حتى عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الصالح ، كان يصل بين القلوب المتحابة عندما يتصل به خبر احد العشاق الذين لا تساعدهم الظروف على الاجتماع بحبيباتهم » .

وبلغ من مجون الرواة أن رووا الحكايات الجميلة عن المحبين وعشيقاتهم وهم في اقدس مكان من مشاعر الله . قال الزبير بن بكار عن مصعب الزبيري عن عبد الرحمن بن ابي الحسن : « خرج ابو حازم يرمي الجمار ومعه قومٌ متعبدون ، وهو يكلمهم ويحدثهم ويقص عليهم . فبينما هو يمشي وهم معه اذ نظر الى فتاة مستترة بخمارها ترمي الناس بطَرفها يَمنةً ويَسرة ، وقد شغلت الناس وهم ينظرون اليها مبهوتين ، وقد خبط بعضُهم بعضاً في الطريق ، فرآها ابو حازم فقال : يا هذه اتقي الله فانك في مشعرٍ من مشاعر الله عظيم ، وقد فتنتِ الناس فاضربي بخمارك على جيبك فإن الله عز وجل يقول : (وليضربن بخُمرهن على جيوبهن) فأقبلت تضحك من كلامه وقالت : اني والله :

من اللائي لم يحجُجن يبغين حسبة
ولكن ليقتلن البريء المغفلا

فأقبل ابو حازم على اصحابه وقال : « تعالوا ندعو الله ان لا يعذب هذه الصورة الحسناء بالنار . فجعل يدعو واصحابه يؤمنون » .

وكانت الصلاة رحمةً واجبةً على الوجه الجميل في نظر بعضهم . قال يحيى بن سفيأن : « رأيتُ بمصر جاريةً بيعت بألف دينار فما رأيتُ وجهاً قط احسن من وجهها صلى الله عليها ! » فقال له احدهم : « يا ابا زكريا مثلُكَ يقـول هذا مع ورعـك وفقهك ؟ ! » فقال : « وما تنكر عليَّ من ذلك ؟ صلى الله عليها وعلى كل مليحٍ يا ابن اخي ! الصلاة رحمة » .

وروي عن الأصمعي انه قال : « بينما انا اطوف بالبيت اذا انا بجارية متعلقة باستار الكعبة وهي تقول :

لن يقبل الله من معشوقةٍ عملاً
يوماً ، ووامقُها غضبانُ مهجورُ
وكيف يأجرُها في قتل عاشقها
لكنَّ عاشقها في ذاك مأجورُ

فقلت لها : يرحمك الله أفي مثل هذا الموضوع تنشدين هذا ؟ فقالت:اليك عني يا عراقي لأرهقتك . فقلتُ لها:وما الحب ؟ فقالت : هيهات جلَّ والله عن ان يحصى وخفي عن ان يُرى . فهو كامن ككمون النار في حَجرها ، إن قَدحتَـهُ ورى وإن تركته توارى ثم انشأت تقول :

إنسٌ غرائر ما هممن بريبةٍ
كظباء مكة صيدُهن حرامُ
يُحسبن من لين الحديث فواسقاً
ويصدُّهن عن الخنا الاسلام

وكان ابو السّائب المخزومي احد القراء والفقهاء فرؤي متعلقاً بأستار الكعبـة وهو يقول :

الله ارحم العاشقين واعطف عليهم قلوب المعشوقين . فقيل له في ذلك فقال : « الدعاء لهم افضل من عُمرةٍ في الجُعرانة » .

ومن اجمل ما يروى عن الحسن البصري ، وهو من هو ، في العلم والدين ، ان امرأة جميلة دخلت عليه فقالـت : « يا ابـا سعيد أيحـلُّ للرجـال ان يتزوجـوا على النساء ؟ قال:نعم ، قالت:وعلى مثلي ؟ ثم سفرت عن وجه لم يُر مثله حسناً وقالت : يا ابا سعيد لا تُفتوا الرجال بهذا . ثم ولّت . فقال الحسن :«ما على رجل كانت هذه في بيته ما فاته من الدنيا » .

ورووا ان الحارث بن خالد المخزومـي ، والي مكة لعبـد الملك بن مروان ، استهيم بحب عائشة بنت طلحة ، وكانت ذات جمال ومكانة وشرف . وحجّت عام ولايته فأرسلت اليه تسأله ان يؤخر الصلاة حتى تفرغ من طوافها ففعل . فأنكر اهلُ الموسم ذلك من فعله واعظموه ، فعزله عبد الملك وكتب اليه يؤنبه فيما فعل ، فقال : «ما أهونَ والله غضبهُ اذا رَضِيتَ ! والله لو لم تفرغ من طوافها الى الليل لأخّـرتُ الصلاة الى الليل » .

ولم يقف الرواة عند هذا الحد في رواياتهم فقد زعموا ان النبي العربي الكريم حدَّث ان من مات محباً عاشقاً فالشهادة أجره . « من عشق فظفر ، فعفَّ فمات ، مات شهيداً .

« ولقـد كنـا روينـا عـن سعيدٍ عـن قتـادة

عن سعيـد بـن المسيّـب أن سعـد بـن عبـادة

قـال : من مـات محبـاً فلـه أجـرُ الشهـادة »

وحدث محمد بن داود الاصبهاني قال : « قال سويد : حدثنا بن سعيد قال : حدثنا علي بن مسهر عن ابي يحيى القتات عن مجاهد ، عن ابن عباس عن النبيﷺ انه قال : « من عشق وكتم وعفَّ وصبر غفر الله له وادخله الجنة » وكان النبي العربي يحب الجمال ويقدر الحسن اينما كان . قال :

« اطلبوا الحوائج عند حسان الوجه »

وقال ايضا :«اذا خرج الرجلُ الى اخوانه فليجملن نفسه فإن الله جميل يحـب الجمال » .

وتحدث عقبة بن عامر قال : « قال رسول الله ﷺ : إن الله ليعجبُ من شاب لا صبوة له » وعن ابن عباس انه قال : قال رسول الله (ص) : « النظر الى الوجه الحسن يجلو البصر والنظر الى الوجه القبيح يورث الفلج » .

وقيل إن عائشة حدثت أن النبي كان يقبّلها وهو صائم . وسئلت ام سلمة في ذلك فلمْ تنكر بل قالت : إن رسول الله (ص) كان اذا رأى عائشة لم يتمالك عنها . أما انا فلا . وقال بيان عن الشعبي إن عائشة كانت أحب أمهات المؤمنين الى قلب النبي . وفرض عمر بن الخطاب لأمهات المؤمنين عشرة آلاف وزاد عائشة الفين وقال : إنها حبيبة رسول الله !! وكان مسروق اذا حدث عن عائشة يقول : حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة رسوك رب العالمين المبرأة من فوق سبع سماوات . فهذا الود والحنين من النبي لعائشة وهذه القُبلات الزكية تحدث عنها بفخر وكبرياء هي التي تجعل من النبي العربي الكريم انساناً صحيحاً يشعر بشعور الناس ويأنس قلبه وعيناه الى الوجه الوسيم الجميل كما يأنس كل انسان مرهف الشعور ، دقيق العواطف . ولله ما اروع قوله وأنبل هذا التقرب منه الى ابناء البشر عندما يقول :«جُعلت قرة عيني في الصلاة ، وحبّب الي النساء والطيّب . الجائع يشبع والظمآن يُروى ، وانا لا اشبع من حب الصلاة والنساء » .

منزلة النساء الجميلات الاجتماعية :

وهكذا نرى ان المرأة العربيه تمتعت في هذا العصر بحرية اجتماعية واسعة ، ففرضت بعض النساء نفوسهن على مجتمعهن وتألقت في الجو الأدبي الاجتماعي اسماء نسائية كثيرة كسُكينة بنت الحسين ، وفاطمة بنت عبد الملك ، وعاتكة بنت يزيد ، وعائشة بنت طلحة ، وام البنين اخت عمر بن عبد العزيز وزوجة الوليد بن عبد الملك وغيرهن كثيرات . وبلغت الحريةُ بسكينة ان احلفت زوجها حين تزوجته ، ان لا يمنعها سفراً ولا مدخلاً ولا مخرجاً ، وقدمت مكّة مرةً فأتاها الغريضُ ومعبد فغنياها .

عرجي علينا ربةَ الهودج
إنك إن لم تفعلي تحرجي

فقالت:والله ما لكما مثلٌ إلا الجَديين الحار والبارد ، لا يُدرى ايهما اطيب . وكانت جميلةً ولها ابنة لا تقل عنها جمالاً قالت فيها بعد ان البستها دراً كثيراً : والله ما ألبستها إياه إلا لتفضحه . وكانت خبيرة بأحوال العشاق ، عليمة بما يكنُّون وما يشعرون وذكروا انها ركبت في جواريها فمرت بعروة بن الليثي وهو يغني فقالت لجواريها : من الشيخ ؟ قالوا عروة ، فعدلت نحوه ثم قالت : يا ابا التمام انت تزعم انك لم تعشق قط وانت تقول :

قالت وابثثها وجدي فبحتُ به
قد كنتَ عندي تحبُ الستر فاستتر
ألستَ تبصر من حولي ؟ فقلت لها
غطّى هواك وما القى على بصري

كل من ترى حولي من جواري أحرار ان كان خرج هذا الكلام من قلب سليم قط .

ولأم البنين قصص كثيرة في ميادين الحب والجرأة الأدبية .

قالت مرة لعزة صاحبة كثيّر : « اخبريني عن قول كثيّر » :

قضى كل ذي دين فوفّ غريمه
وعزة ممطول معنّى غريمها

أخبريني ما ذلك الدين ؟ قالت :«وعدته قبلة فحرجت منها » قالت أم البنين : «أنجزيها وعلي إثمها » .

ولبعض الخلفاء وغيرهم من أشراف العرب الأولين وأدبائهم اقوال كثيرة في الجمال وانواعه تبيّن لنا ، فضلاً عن اهتمامهم الشديد بالمرأة ، كيف كانوا ينظرون الى الحسن وكيف كانوا يقدرونه . . . كانت عائشة تقول : البياض نصفُ الحسن . كذلك قال عمر بن الخطاب : اذا تم بياض المرأة في حسن شعرها فقد تم حسنها وكان علي بن ابي طالب يضع الصباحة أولى خصائص بني قومه ويفاخر بها وكان ابن

الاعرابي يقول : الحلاوة في العينين والجمال في الانف ، والملاحة في الفم ولهم نظرات في المرأة وجمالها لا تخلو من الصواب والطرافة . من ذلك رأي للحجاج:لا يحسن نحر المرأة ، حتى يعظم ثدياها . وكان علي يقول : لا تحسن المرأة حتى تروي الرضيع وتدفىء الضجيع . أما قوله في السمراء ففيه إعجاب ظاهر بجمال السمراوات وسحرهن الاخاذ قال : من تزوج سمراء فطلقها فعلي مهرها .

وبلغ من تقدير احد المعلمين للجمال : أنه كان يُقعد ابناء المياسير والحسان الوجوه في الظل ويُقعد الآخرين في الشمس ويقول : يا اهلَ الجنة ابزقوا في وجوه أهل النار ! ورووا أن كثيرين من علماء الحديث والمفتين ورجال الدين كالشافعي وأنس بن مالك وعمرو بن سفيان وابي حنيفة وغيرهم حللوا للعشاق ما لم يحلل لغيرهم .

يميل المحدثون من أهل النظر إلى اعتبار الهوى العذري ضرباً من الضعف النفسّي ، او استرسالاً مع شعور غير متزنٍ ، وينحون باللائمة على أصحابه ، ظناً منهم بأنه يعبِّرُ عن ميعان في شخصياتهم . وليس لهذا الموقف الذي يتخذه المحدثون من سبب ، سوى انهم ينظرون إلى المرأة من زاوية خاصة في جانب ، والى الحب من زاوية عصرهم هذا ، في الجانب الآخر ، وبذلك يضيعون عن الإطار التاريخي الذي تولد فيه الافكار ، ويتيهون عن الاجواء التي تنشأ فيها تيارات الشعور ، فتتأثر أحكامهم على الماضي بتجاربهم في الحاضر ، ويخضعون غيرهم لمقاييسهم عند بحثهم مثل هذه الشؤون التي تلتقي فيها جميع العصور والبيئات ، ولكن تلاقيها يكون بشكل عام ، لا في الخصائص والأمزجة والتفاصيل .

ولم يكن فهم المتقدمين لهذه الظاهرة ، ظاهرة الحب العذري ، بأوضح من فهم المتأخرين ، ولا كان تفسيرهم لها أصح .

كل ما ادركوه منها انها تنسب إلى آل عذرة ، وهم « قبيلة عربية ، عرفت بالعشق العفيف ، والحب الذي لا يداخله ريبة » . واكثروا بعد ذلك من ذكر الأشعار والأخبار والاستشهادات التي تؤيد تلك « المعلومات » وتؤكد صحتها ،

دون ان يفكر احد منهم بالاصول التاريخية والأوضاع الاجتماعية والتطورات الاخلاقية التي افضت الى ذلك النهج في الحب .

إذ انتقل من الأوصاف والآهات والحسرات والوقوف على الأطلال والرسوم ، الى اعمال فكره في ما كان يكابد من حالات نفسية وأشجان . وابن الأحنف عاش في النصف الأخير من القرن الثاني للهجرة ، وسندرس أقواله في الحب ، عند بحث الجانب الفلسفي من الحب ، وطرائق فهمه من قبل الأقدمين .

المهم أن نحفظ هنا أن الهوى العذري ـ لا غيره من أنواع الحب ـ هو الذي دفع بالمفكرين في اطار الحضارة العربية نحو فلسفة هذا الموضوع ، واعمال النظر فيه ، وهو الذي أوجد الأساس للحياة الصوفية ورموزها .

***

عرف العرب بعضاً من شعرائهم الاسلاميين بالشعراء العذريين فمن هم هؤلاء الشعراء ؟ ولماذا نسبوا الى هذا لاسم ؟ وما هو هذا الحب العذري ؟ وأي علاقة تربطه بالحب الافلاطوني ؟

يقودنا الجواب حتماً الى البحث في بني عذرة وشهرتهم ، وفي سبب نسبة الحب العذري اليهم .

من هم بنو عذرة ؟

يؤخذ من بعض اخبار الكتاب الادبية العربية كالاغاني وغيره من كتب الاصول أن عذرة كانت قبيلة لها اعمال مجيدة في ايام العرب ، وأن رجالها من افصح الرجال بشهادة عبد الملك في قوله عن آل عذرة : « اولئك فصحاء الناس » . وتروى الحكايات والقصص عن اشتهارهم بحبهم وميعانهم في ذلك الحب ورقتهم حتى الانميات واليك بعضها :

روى ابراهيم بن سعد الزُهري قال : « أتاني رجل من بني عذرة لحاجة فجرى ذكر العشق والعشاق فقلتُ له : أنتم ارق قلوباً أم بنو عامر ؟ قال : إنّا لأرق الناس قلوباً ولكن غلبتنا بنو عامر بمجنونها » .

والظاهر أن العاشق العذري كان يستمد من ضعفه قوة ومن « المحاجر البلج والأعين الدعج » سلاحاً يَشهره في وجه خصومه الـذين يعيّرونـه حبـه . قال أبـو عبيدة : قال رجل من فزارة لرجل من بني عذرة : « تعُدون موتكم في الحب مزية ، وانما ذلك من ضعف البنية وعجز الروية ، فقال العذري : «اما انـكم لو رأيتـم المحاجر البُلجَ تُرشق بالأعين الدُعج فوقها الحواجب الزُج وتحتهـا المباسـم الفُلـج والشفاه السُمر تفتر عن الثنايا الغر كأنها بَرَدُ الدُر لجعلتموها اللات والعزى ورفضتم الاسلام وراء ظهـوركم » .

وسأل سعيد بن عقبة الهمداني أعرابياً قال : ممن الفتى ؟ قال : من قوم اذا عشقوا ماتوا» . قال : عذري ورب الكعبة !!! قال : ومم ذاك ؟ قال : في نسائنا صباحة وفي فتياننا عفة . وهذه الصباحة في النساء العذريات وهذه العفة في الرجال كلفتهم غالياً . لقد دفعوا ثمنها دم أكبادهم وعصارة صدورهم .

حدث احمد بن الزُبير قال : سمعت رجلاً من بني عذرة عند عروة بن الزبير يحدثه فقال عروة : « يا هذا بحق اقول لكم إنكم ارق الناس قلوباً ، فقال:نعم والله : لقد تركتُ بالحي ثلاثين قد خامرهم السل وما بهم داءً إلا الحب » .

علامات الحب العذري :

وهكذا ترى أن الهزال والاصفرار ، والنحول حتـى الموت هي من علامـات الهوى العـذري بل هي من ادق خصائصـه . ألـم تسمـع الى جواب ابـن عقبـة للاعرابي :

« عذريٌ ورب الكعبة » لأنه قال : نحن من قوم اذا عشقوا ماتوا !

واسترسلوا في تعريف العشاق العذريين فادعوا أن العاشق منهم لا يمكنه أن يكون سميناً ، محباً للأكل أنشد أحدُ الأعراب :

وقد رابني من زُهدُم أن زُهدُماً
يشدُّ على خبزي ويبكي على جملي
فلو كنتَ عذريَّ العلاقة لم تكن
سميناً ، وأنساك الهوى كثرة الاكل

واشتهر العشاق العذريون بموتهم في سبيل حبيباتهم حتى ذاع صيتهم بين القبائل وضربت بحبهم الامثال :

. . . . . . انت لو كنت عاشقاً مت عشقاً
مثلما مات من بني عذرةَ كلُّ صحيحِ الهوى فغودر مُلقى
قتل الحب قيسَ لبنى ومجنون بني عامر وأمرضَ خَلقا
وتحدَّى كثيِّراً وجميلاً ولقي منه عروة كلَّ ملقى

ورددت الكتب الأدبية هذه الروايات عن بني عذرة وعن حبهم الغريب حتى قالوا فيهم الأقاويل : « فهم قبيلة مشهورة بالعشق في قبائل العرب واليهم ينسب الهوى العذري لأنهم أشد خلق الله عشقاً » .

« وهم أشد الناس غراماً وأعظمهم هياماً . . والعشق فيهم كثير والمقتول منهم جمٌّ غفير ». وقالوا : « إنه ليس حي أصدقَ في الحب من بني عذرة ولا تضرب الامثال إلا بهم » وقيل فيهم : « أنهم اشتهروا برقة قلوبهم وصدق المِقةِ مع العفاف ، وتجنّب المآثم » .

وحبهم ذو لون خاص يميزه من حب بقية الناس : « فهم يستلذون مرارة العشق مثل الضرب ، جُبلت المحبة من طينتهم ، وجُنيت المودة من لينتهم ، وصار الهوى وصفَهم الذي لا ينفك . . . فمنهم من يموت من أوام غرامه ، ومنهم من يموت بهيام سقامه » .

وهم لا يؤمنون بغير هذا النوع العذري من الحب : « فالحب اذا نُكح فسد » على رأي أحد فتيانهم .
يحكى عن العذريين :

حدث ابو عمرو بن العلاء قال : حدثني رجل من تميم قال : « خرجت في طلب ضالة لي ، فبينا انا ادور في ارض بني عذرة أنشدُها اذا ببيت منعزل عن البيوت وفي كسره شاب مغمى عليه ، وعند رأسه عجوز بها بقيّة جمال ساهية ، تنظر اليه ، فسلمت عليها فردت السلام فسألتها عن ضالتي فلم تعلم بها» .

فقلتُ:من هذا الفتى ؟ فقالت:ابني ، فهل لك في أجر لا مؤونة فيه ؟ فقلت: والله اني أحب الأجر وان رُزِئتُ. فقالت: ان ابني هذا يهوى ابنة عم له عُلِّقها وهما صغيران ، فلما كبرت خطبها غيره ، فأخذه شبيه الجنون ، فخطبها الى ابيها فمنعه وزوَّجها غيره ، فنحل جسمه واصفر لونُه وذهب عقله ، فلما كان مذ خمسٍ زُفّت الى زوجها ، فهو كما ترى مغمى عليه ، لا يأكل ولا يشرب ، فلو نزلت إليه فوعظته ؟ قال : فنزلت اليه فلم أدع موعظة إلا وعظته بها حتى قلت له : إنهن الغواني صاحبات يوسف ، الناقضات العهد ، وقد قال فيهن كثّير :

هل وصلُ عزة إلا وصلُ غانيةٍ

في وصلِ غانيةٍ من وصلها خَلَف

قال : فرفع رأسه محمّرة عيناه كالمغضب وهو يقول :

لست ككثير ، إن كثيراً رجل مائق ، وأنا وامق ، ولكني كأخي تميم حيث يقول :

الا لا يضرُّ الحب من كان صابرا
ولكنَّ ما اجتاب الفؤادَ يضيرُ
الا قاتلَ الله الهوى كيف قادني
كما قيد مغلولُ اليدين أسيرُ

فقلت له:إنه قد جاء عن نبينا (ص) أنه قال :

من اصيب منكم بمصيبة فليذكر مصابه بي ، فأنشأ يقول :

ألا ما للمليحة لم تَعُدني
أبخلٌ بالمليحةِ أم صُدودُ ؟
مرضتُ فعادني أهلي جميعاً
فمالكِ لم تُري فيمن يعودُ ؟
فقدتك بينهم ، فبكيتُ شوقاً
وفقدُ الألفِ يا أملي شديدُ

وما استبطأتُ غيركَ فاعلميه
وحولي ، من ذوي رحمي ، عديدُ
ولو كنتِ المريضَ لكنتُ أسعى
اليكِ وما يهددني الوعيدُ

ثم شهَق شهقةً وخفت خفتةً فداخلني امرٌ ما داخلني مثله قط والعجوز تبكي ، فلما رأت ما حل بي قالت : يا فتى لا تُرَع ، مات ، والله ، ولدي بأجله واستراح من تباريحه وغصصه ، فهل لك في استكمال الصنيعة ؟

قلتُ تولي ما احببتِ ، قالت : تأتي البيوت فتنعاه اليهم ليعاونوني على رمسه ، فإني وحيدة ، فركبت فرسي وأتيت البيوت رافعاً صوتي بنعيه ، فلم ألبث أن خرجت لي جاريةٌ من اجمل ما رأيت من النساء ، ناشرةً شعرها ، حديثة عهد بعرس ، تقول : بفيك الحجرُ المصمت ، من تنعي ؟ قلت:أنعي فلاناً . قالت : او قد مات ؟ قلت:إي والله ، قد مات ، قالت:فهل سمعت له قولاً ؟ قلتُ اللهم شعراً ، قالت وما هو ؟ فأنشدتُها ابياته ، فاستعبرت وانشأت تقول :

عذابيَ أن أزوركَ يا مرادي
معاشرُ كلُّهم واشٍ حسودُ
أشاعوا ما علمتَ من الدواهي
وعابونا وما فيهم رشيدُ
فاما إذ ثَويتَ اليومَ لحداً
وكل الناس دُورهُم لحودُ
فلا طابت لي الدنيا فراقاً
ولا لهمُ ولا أثري العديد

«ثم شهقت شهقةً فوقعت مغشياً عليها وخرجت النساء من البيوت فاضطربت ساعة وماتت ، فوالله ما برحت حتى دفنتهما جميعــاً .

وقس على هذه الحكايات والروايات عشرات مثلها وكلها تنطق بما كان لهـذه القبيلة من عواطف حبيَّة سامية هي غير عواطف الناس على ما يظهر . والذي يدعو

الى الحيرة الدهشة حصرُ هذا النوع من الحب في قبيلة عربية واحدة هي قبيلة بني عذرة ، وإن الباحث ليتساءل عن اشتهار هذه القبيلة بحبها دون غيرها ، لاسيما وأن المحيط واحد ، والبلاد واحدة ، والقوم كلهم يعيشون حياة تكاد تكون واحدة ، وان اختلفت في ظاهرها بعض الاختلاف ، كما سنبين في فصل آخر ، نتساءل ، في كثير من الدهشة ، كأن بني عذرة وعشاقهم كانوا من طينة غير طينة البشر ، وكأنهم ، بما عرف في نسائهم من صباحة وبما اشتهر عن فتيانهم من عفّة ، قد جبلوا من طينة الملائكة ولم تثر في صدورهم العاطفة البشرية التي تثور في وفيك وفي كل بشري آخر .

ونحن نميل الى الاعتقاد بغلو الرواة العرب في ما زعموه عن بني عذرة وعشاقهم حتى أخرجوهم من طبقة الناس ووضعوهم في مصاف الآلهة ونسبوا الى حبهم كل غريب عجيب . فما هو هذا الحب العذري الذي نسبوه اليهم ؟

ليس هو في الحقيقة سوى حب يؤدي بصاحبه الى الهزل والاصفرار والنحول ثم الموت ، وهو حب طاهر ، لا يعترف بحق الجسد وشهواته وتمتعه بلذات الحب ، والحبيب العذري حبيب رقيق ، صادق في حبه حتى الموت ، تضرب به الأمثال ، لا يسمن لأنه لا يأكل ، ينهش داء السل رئتيه نهشاً وما داؤه في الحقيقة غير عشقه ، أما دواؤه فهو الحبيب المعبود ، ولكن دون الوصول اليه اهوالاً واهوالاً .

هذا ما نستطيع ان نعرفه عن الحب العذري وعن العشاق العذريين .

هذا هو الحب العذري كما رواه الرواة العرب وكما رأيناه من خلال التعاريف الكثيرة المبثوثة في كتب الأدب والتاريخ ، فليرجع اليها الباحثون فلن يجدوا فيها على ما اعتقد ، اكثر مما قلناه .

اشهر الشعراء العذريين :

أما الشعراء العذريون الذين ذاقوا هذا الحب واكتووا بنيرانه وغذوا منه ارواحهم وخيالهم فهم من لحم ودم قد وجدوا في التاريخ حقاً ، ولم يشك أحد في وجودهم اللهم الا مجنون بني عامر كما سنرى ، وقد عرفهم صدرُ الإسلام

شخصيات ادبية معروفة لها وزنها واعتبارها ، وأشهرهم : جميل بثينة ، مجنون ليلى ، قيس بن ذريح ، وعروة بن حزام .

ومنهم من ينتمي الى قبيلة بني عذرة ومنهم من ينسب حبه الى الحب العذري لاشتهاره بالطهر والعفة وما شاكل هذه الصفات .

ومن المستحسن هنا ان نشير الى ان هؤلاء الشعراء العذريين ، وكلهم ربيب البوادي والصحاري ، لم يتنعّموا بما تنعّم به زملاؤهم في حواضر الاسلام المختلفة ، في الشام والعراق ومصر وغيرها من بلاد المسلمين ، من الخيرات العميمة التي فاضت عليهم إثر الفتوحات العظيمة . وحرمانهم هذا ، أبعدهم عن الاحزاب السياسية فلم تتحرك عاطفتهم في نظر الشعر السياسي بل انقطعوا الى نوع واحد من الغزل العفيف ، الصادق ، الساذج الذي نما وترعرع في بوادي الحجاز ووهاده وتفشى بينهم تفشياً سريعاً حتى اصبح فناً رائجاً من فنون الشعر . . .

وليس غريباً ان يجيء هذا الشعر الغزلي متشابهاً في اكثره وان اختلف عدد قائليه . فجميعهم كما رأينا ابناء وسط واحد ، بعيدٍ عن ضوضاء المدنية الاسلامية الجديدة وحياتها الصخابة ، بعيدٍ عن حياة البذخ والترف والمجون ، تلك الحياة التي عرفها ابن ابي ربيعة وغرف منها غرفاً كبيراً ، ساعده على ذلك شباب ريان وجمال فتان ومال وفير وصيت عريض ! لم يعرف العذريُّون هذا اللون من ألوان الحياة بل انكمشوا على نفوسهم وانزووا في باديتهم ووضعوا هدفهم الأعلى في حياتهم خيال امرأة من النساء وراحوا يتغنون بها في شعرهم ليلهم ونهارهم . جعلوا الحب غاية من غاياتهم في الحياة وقدّسوه وعبدوه ثم جسّموه في شخص ليلى ولبنى وبثينة وعزَّة وعفراء فرفعوا لهؤلاء النساء تماثيل في قلوبهم ، يحرقون امامها شموع شبابهم الذابل ، ويذيبون على اعتابها عصارة قلوبهم المتألمة المنسحقة ! لم يأتوا بالجديد المبتكر في شعرهم الغزلي ، ولم يتفننوا او يبتدعوا في ذلك الحب الجديد العنيف ، فلم يضيفوا الى اوتار الشعر العربي وتراً جديداً بما لهذه الكلمة من معنى واسع صحيح !

الشعر العذري شعر العاطفة الجريحة :

ولكنهم كانوا سبّاقين الى حصر شعرهم في فن واحد من فنون الشعـر . كان الغزل قبلم تصنعاً وتكلفاً فأصبح في زمنهم خلجة قوية من خلجات النفس الصادقة وعاطفة جريحة تئن وتتألم ! لم يقم في العصر الجاهلي شعراء يحملون لواء الغـزل وينادون باسمه في كل مجتمع ونادٍكما فعل اصحابنا العـذريون . فامـرؤ القيس ، وغزله مشهور ، لم يكن ليتعدّى بشعره الغزلي وصف اللحم والدم والشهوة الحسية التي تتأكل جسمه والتي يبدو اثرها في كل بيت من ابياته الفاحشة . . . كذلك قل في بقية الشعراء الجاهليين كالاعشى والنابغة الذبياني وابن كلثوم وغيرهـم من الـذين قصدوا ان يتغزلوا فجاء غزلهم حسياً ماجناً .

والحقيقة ان المرأة في الشعر الجاهلي لا تبدو افضل من الناقة . فطرفة خص ناقته بعشرات الابيات ووصفها وصفاً دقيقاً متغزلاً بكل عضو من اعضائها دون ان ينسى بريق عينيها وصفاءهما ، كذلك قل في فرس امرىء القيس . . .

ونحن لا ننكر على هؤلاء الشعراء الجاهليين تغزلهم بما كانوا يحسّونه ، وانما نقرر حقيقة يعرفها كل من يدرس الادب الجاهلي وهي ان الشعراء الجاهليين لم ينظروا الى نفس المرأة ولم يدرسوا عواطفها او يحللوا خلجات قلبهـا الحبيّة ، بل اكتفـوا بوصف اعضائها الجسدية وصفاً حسياً لم يختلف عن وصفهم لنياقهـم وأفراسهـم اختلافا كبيراً .

ونحن لا ندّعـي ان الشعراء الاسلاميين درسوا المرأة درساً تحليلياً فكشفوا عن نزعات نفسها المختلفة وحللوا عواطفها تحليلاً نقدياً نفسيّاً دون ان يهتموا بجمالات جسدهـا او يتغزلوا بهـذه الجمالات الحسيّة غزلاً غـير بريء (حتـى العـذريون منهـم) . لا ندَّعي شيئاً من هذا ، فالادب العربـي ، في عصـوره المختلفـة ، لم يستطع ان يتجرد عن المادية تجرداً محسوساً كما يقرر اكثر مؤرخي الآداب العربية . ولكن الاسلاميين عرفوا ان ينظروا الى المرأة نظرة فيها من الانسانية والنبل وعواطف الحب الصادق ما لم يحلم به الجاهليون . لقد استبدلوا بهذه الخشونة الجاهلية رقة اسلامية اكتسبوها عن طريق الدين الجديد والمحيط الجديد . لقد اصبـح الشاعـر

الاسلامي ، بإحساسه المرهف ، وشعوره الدقيق انساناً كاملاً يشعر ان المرأة هي مخلوق لا يستغني الرجل عنه ولا تطيب نفسه بدونه ، فجاء شعره عابقاً بهذا الاحساس وذلك الشعور عبوقاً هو من ابرز صفات هذا الشعر وأصح مميزاته .

ان هذا النهج في الحب أحد « مخترعات » الروح النسائي او ايحاء من ايحاءات المرأة ، وهذا هو المعقول ، لأن الرجل ينزع اجمالاً الى تنويع الحب وتعدّده ـ كما رأيت في موقف خالد بن صفوان والسفاح ـ وهو لا ينحصر من تلقاء ذاته في هوى واحد ، إلا حين يغمره هذا الهوى الواحد غمراً تاماً ، ويطبق عليه من الجهات الأربع ، ويطوِّق آفاقه ، ويملك عليه اقطار وجوده ، في شخص امرأة تحبه ، وتستمر في تغذية حب لها .

فإذا التفتنا الآن الى ان الاسلام لم يمانع في تعدد الزوجات ، وفكرنا في موقف المرأة العربية آنذاك من هذه القضية بالذات ، لم يبق لنا من ندحة عن تصور « معارضة نسائية » لهذا الدين ، او لهذا الجانب من الدين الاسلامي في أقل احتمال . ولكن الأسلوب الذي تصطنعه النساء في معارضة مبدأ من المبادىء ، يتّسم دوماً بالغموض والكتمان والمداورة ، فهن لا يواجهن من يعارضن او ما يعارضن بالعنف ، وإنما يوافقن في البدء ، ويتكيفن حسب الواقع الذي لا طاقة لهن على تغييره دفعة واحدة ، ثم يأخذن رويداً رويداً ، وبخطى ثابتة ، في اصطناع الوسائل والأساليب المؤدية الى تغيير الواقع الذي لا يرضيهن .

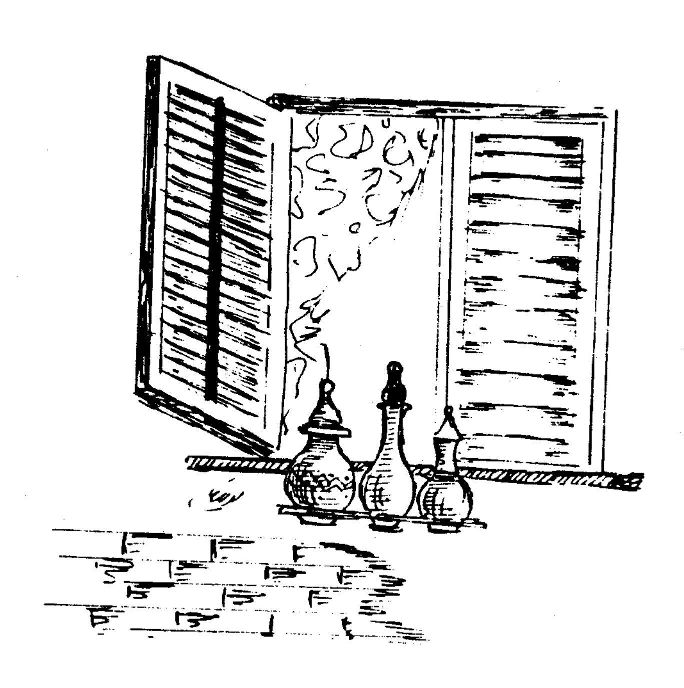
ذلك يعني في التحليل الأخير ان الهوى العذري القائم على تمجيد المرأة ووحدانية الحب ، لم يكن سوى « اسلوب » اصطنعته المرأة العربية في معارضة المبادىء التي تمس شخصيتها في الدين الاسلامي ، وتوجت جهودها بالنجاح اخيراً عندما قضي على الدولة الأموية ، وبرز نجاحها في سيرة ابي العباس السفاح ، اول خليفة عباسي .

وقوي الصراع ، مع ظهور الدولة العباسية ، بين سلطة النساء والسلطات الدينية في المجتمع ، الى ان انتصرت المرأة على يد الجواري والقيان ، ثم تحول

الصراع بين النساء والنساء على السلطة ، بين العربيات وغير العربيات ، وكانت الغلبة للفرس والأتراك ، إذ قلَّ في الخلفاء بعد السفاح من ولدته أم عربية .

وهنا ، تدخلت عناصر اخرى في الصراع ، تهدمت بها المدنية العربية ، وقضي معها على استقلال العرب وسيادتهم ، وبدأ عهد جديد ، هو عهد التفكير في الحب الذي يتلو عادة شيخوخة الفرد او الامة .

وقد بدأ النظر الفلسفي يحوم حول الحب في اللحظة التي أخذ بها المدّ العربي يتطامى ، ثم يجزر ، بعد أن كان البحث في هذا الموضوع ككل بحث في كل موضوع ، لا يعدو « الخطرات الشعرية » والتأملات المتقطعة والفكر المستوحاة من الوقائع اليومية .



الفَصل الخَامِس

الحياة المعاصِرة والحُبّ

يكاد الواحد منا وهو يتصور فضاءه المونق الرحيب يحسب ولوجه من اليسر بمنزلة لا تدانيها منزلة ! بيد أنه يظل على رحابته ، وكثرة أبوابه المشرعة ، وتدفق الأنوار على جوانبه ، أعسر مما نتصور ، وأدق مما نحسب . لأن ولوجه شيء وفهمه شيء آخر ، ولا يلجه غير أولئك الذين يفهمونه ويدركون ما يعج به من أضواء وأنغام وعطور ، وما ينتشر في آفاقه من حقائق ومعان وقوى ، وما يفيض منه على الأرض من أفراح وآلام وأفكار .

وعالم الحب عالم النفس البشرية فمن استطاع أن يتذوق جمالاته ويستمتع به ، ويصف ما أتيح له أن يعرف منه ، كان حرياً أن يدرك بعض أسرار النفس ، وأن يخوض من وجوده أخطر وأرقى مغامرة جسدية وروحية .

والشعور الأسمى بالوجود ضرب من المغامرة لا يملك أي كائن من الكائنات أن يمر به ، أو يتعرف إليه ، إلا إذا أتيح له أن يعاني تجربة الحب ، على أعنف وأمر وأجمل وأحلى وأذكى وأصفى ما تكون . . .

والحياة تبدو في عصرنا هذا شائهة الوجه ، كئيبة السحنة ، سخيفة المظهر والجوهر ، لكثيرين من الخائفين واليائسين والمعذبين والقانعين والمضطربين المجهدين لأنهم عجزوا عن ولوج عالم الحب فيها ، ولم يستفيقوا بعد من سبات حيوانيتهم الأصيلة ، ولا شارفوا الأرض والسماء من الزاوية الرائقة الصاحية التي

تطلعهم على جمال الكون ، وتهيب بهم إلى الصعود ، وتشدهم إلى نفوسهم شداً يقربهم من الحقيقة ، وينسيهم الأضاليل والأباطيل ، ويحملهم على ارتياد منابع الفرح الأكبر ، والعب من كوثره العذب الرقراق ، ليطلوا من بعده على الدنيا بنضرة تنشر في الناس نضرة النعيم وما هذا العجز وما هذا الاضطراب الأ ويثيران الأسى والنقمة ، أو الازدراء والازورار ، فما من كلمة أسيء استعمالها ككلمة الحب ، ولا من معنى كثر البحث فيه كمعنى الحب ، ولا من لفظة تكررت على المسامع وتناقضت اصداؤها وتنافرت كلفظة « الحب » فمن الواجب علينا ان نعيد النظر فيه كعالم قائم بذاته ، شامل للحياة من جميع جهاتها ، منتشر في جذورها وعمودها وفروعها ، مشرف على ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، متلون بألوان عصورها ، لا ككلمة شائعة كغيرها من كلمات القاموس التي تلوكها الألسنة ، ويتجادل في شأنها اللغويون والنحاة والفلاسفة واذا ما نظرنا هذه النظرة الصافية الى الحب وأخذنا رويداً رويداً في قص أثره ، واستقراء مظاهره ، وتبين قيمته ، تكشفت لنا مع الزمن آفاق حياة جديدة ، وهدانا البحث إلى سلوك جديد ، وانبعث في نفوسنا أمل حلو رقيق بالسعادة وتحقيقها ، بالغاً ما بلغت ظروفنا من الضيق وأيامنا من الشدة والعسر . فالحب يكشف لنا اول ما يكشف ذلك المعنى الانساني الشامل الذي يتصل بالعقل اتصالاً وثيقاً ، اكثر مما هو محض غريزة حيوانية ، وان كانت هذه الغريزة نواة انبثاقه وتربة نشوئه وما الحب الأ نور يلقيه عقل المحب على الاشياء والحوادث والاشخاص فيبدد الظلمة ويهتك استار الغباوة ، ويمزق كل ما يغشى النفس من حجب تحول بينها وبين الحقائق ، وتمنعها من حسن التصرف في مختلفة الحالات والمواقف . أو هو ـ اذا شئت ـ مصباح تحمله في قرارة كيانك ، في اعمق اعماق وجودك ، يضيء لك سبيل الحق والخير كلما زاغت الأبصار ، وانطفأت البصائر ، وتاهت العقول في مفاوز الأراجيف والدعاوات الجوفاء .

والحب رائد الجمال ، يبحث عنه في النفوس قبل الأجسام ، وينشده في كل ما تقع عليه الاذن ، وتتصل به الحواس ، فهو لا يني حين يمازج قلبك ويغمره بالنور ، عن مقاومة البشاعة في كل عمل ، وكل تصرف ، وكل حركة ، ولا ينفك عن إثارتك وتجديد إقبالك على الحياة ، كلما غلبك نعاسك الروحي على إشراقك وابتهاجك

ويأنف الحب من الاندماج في الشر وفاعليه والداعين إليه والساعين وراءه ممن يفرحون بالأذى حين يصيب الناس ، وبالبلاء إذ يقع ، وبالظلم عندما يحكم ويسود ، فكأنما هو في ذاته منارة عدالة ، وأداة أمانة ، وطريقة خير وإصلاح والحب يقوي ارادة المحب ويشد عزيمته في مجابهةالصعاب والتغلب على الأخطار ، ويجعله في حرز حريز من الكسل الفكري والتواكل ، والانهيار المعنوي ، والاسترخاء في حومة الصراع بين الحق والباطل ، ومعسكرات الاخاء والعدوان ، فمن أحب بصدق واخلاص ، كان قميناً بان يصعد سلم العلياء درجة درجة ، حتى يبلغ الذروة دون تخاذل او تباطؤ او ميعان .

ذلك هو الشأن في حب الوطن ، وحب الأمة ، وحب الانسانية ، وما يدور حول هذه الانواع من عواطف وافكار وأحاسيس فنية وعلمية وأدبية وفلسفية .

هذه المعاني كلها التي ينتظمها الحب ، والتي لا ينتظمها غيره ليست أثراً من آثار الغريزة الجنسية ، ولا يمكن ان تكون كذلك ، لان حكاية الجنس التي ركبها بعض المفكرين مطية الى مآرب سياسية هادمة ، وأوغلوا في تطويلها وتحميلها ما لا تطيق وتحمل ، قضية حيوانية خالصة في حيوانيتها ، ولو كان لها ان تمتد حتى تبلغ هذا المستوى الفكري الرفيع ، لكان لنا في كل حيوان شبق فيلسوف مثالي أين منه أفلاطون ، بل أين منه عباقرة المتصوفين .

لا ، يجب ان يظل المفكر ، كائناً من كان ، منطقياً معقولاً في وضع النظريات وتفسير ظواهر السلوك الانساني !

يجب ان نعطي الانسان حقه ، وان ننصف الحيوان دون ان نعطيه ما ليس له ، وإلا صعب علينا بعد ذلك ان نحافظ على الحضارة التي قضت الانسانية عمرها وهي تبنيها ، ووقعنا في عجز لا نهضة بعده ، ورجعنا القهقرى الى عهود الشراسة والقسوة والظلام ، عهود الغاب التي تجهل الحق والحرية والنزاهة والكرامة والشرف ، وما إليها من مثل عليا تنير حياة الناس ، وترفعهم عن مستوى البهائم ، واخلاق السباع والضباع .

وإذا أنت تدبرت الكوارث التي نزلت بأبناء المدنية الراهنة ، في هذا العصر ،

وتحريت أسبابها العميقة في كل بيئة ، وكل شعب ، وكل بلد ، وكل قطر ، لمست لمس اليد ان تلك النظريات والفلسفات التي تمجد الغرائز ، وتشيد بالقوة العمياء ، وتفسر الانسان بحيوانيته ، والمجتمع باقتصاده ، والعالم بمادته ، هي التي جرّت المصائب ، وزادت الطين بلة ، وكسفت نور العقل ، وخذلت الحركات الاصلاحية ، وقضت على كل أمل بالتقدم والفلاح ، في اكثر الأفئدة والنفوس . . .

والكثيرون كفرويد وشوبنهور ونيّتشه وداروين وماركس وبرغسون ، وتلاميذهم وأتباعهم من أبناء المدارس الفكرية الحديثة قد نشروا التفكير البهيمي ، المادّي الانحلالي ، وزينوا حياة اليأس والتشاؤم والنزاع أو الغلبة والسيطرة للأفراد والجماعات ، وحولوا الأرض إلى ميدان صراع واقتتال ، وشوّهوا وجه الدنيا بما لفقوا وزخرفوا ، وفرّقوا بين قلبها وقلوب الناس .

تلك هي آثام اولئك الفلاسفة الذين ملأوا حياة العصر الراهن ، ولم يجدوا في الحب سوى غريزة حيوانية ، ولذة عابرة ، وجنس متحكم ، ومادة مسيطرة ، وطبيعة متوحشة ، وذلك هو اثرهم ، أرادوه أم لم يريدوه لكن الحقيقة تبقى الحقيقة رغماً عن انوفهم وأنوف من ضلّوا سواء السبيل في هذا المضمار فالحب قوة روحية عظمى ، تستقطب جميع قوى الحياة والنفس ، وتوجه المرأة والرجل على السواء ، نحو اسمى المثل الانسانية ، وتغذيهما بالمعرفة والايمان ، وتوقظ في كيان كل منهما شتى المعاني الغيرية التي تكمن وراء التضحية والبطولة ، وتمكنهما من تمييز الشر من الخير ، والباطل من الحق ، والرذيلة من الفضيلة .

تلك هي وظيفة الحب الصحيح في حياة الكائن الانساني امرأة كان أم رجلاً . وليست وظيفته الإبقاء على النوع ، او اشباع الغريزة ، او تلبية الشهوة الحيوانية . . . بل ان هذه القضايا ، وما يتفرع عنها ، تأتي في الدرجة الثانية من عمل الحب في داخل الذات الإنسانية ، وتأثيره والدليل على ذلك نستخلصه من الواقع الملموس البسيط الذي يظهر بارزاً في كل جيل ، وكل عصر ، وكل بيئة ، وهو ان أول الشعور بالحب ، بالانعطاف نحو الجنس الآخر ، او بالانجذاب اليه ، انما يكون نتيجة تفتح الذات على غيرها وعلى العالم ، وتحسسنا بوجوده ومعانيه .

ولذا ، نراه يتمثل في المراهق والمراهقة ـ حين يكونان سليمين ، طبيعيين ، خالين من الامراض ـ بانقلابات فكرية ، وتفجرات وعي ، وتخيل صور انسانية خالصة للحياة والكون والمجتمع . . . حتى اذا نما وترعرع اتخذ أشكالاً عديدة وأكواناً مختلفة ، فإما ان ينحدر بانحدار الواقع الذي يحيط نشأته ، وإما ان يستمر في اتجاهه الأصيل الذي يسير توثباً وانطلاقاً وتحمساً . ففي الحالة الاولى ينطفىء تدريجاً ويذوب ، ولا يكون من اثره في كيان صاحبه ما يجعله متفوّقاً ، وفي الحالة الثانية يدفع بصاحبه في طريق النبوغ والجد والعمل والابداع في حقل من الحقول العامة ، حسب الظروف والاوضاع والوسائل ، بيد انه يظل في أساسه قوة يمكن استخدامها دوماً لخير المجتمع واسعاد الناس وهنا يأتي دور التربية الفعَّال لأن الدور الذي لعبه جهل المربين والمربيات هو الذي حال ولا يزال يحول بين الانسانية وبين الافادة من الحب على اكمل وجه وأدقّه واحلاه كما لا بد من ملاحظة هذا الجانب ، جانب التربية في دراسة عالم الحب ، لاننا نلاحظ دوماً ان شخصيات التاريخ الكبرى من شعراء وأدباء وعلماء وساسة وفنانين ومخترعين امتازوا اكثر ما امتازوا بقدرتهم العجيبة على الحب ، وتفرّدوا بذلك اللهب الداخلي الذي جعلهم لا يملون الجهد من أجل غيرهم ، ولا يتوانون في لحظة ، عن الاستمتاع بالخدمات التي كانوا يؤدونها رغم كل ما تنطوي عليه من صعوبات ومشقات ، ولم يكن لهم من حافز أصيل على الصبر والجلد ، سوى امتداد لهيب الحب في جوانحهم ، منذ الطفولة حتى الموت .

والبغض يسيء في حقيقته إلى المبغض نفسه أضعاف أضعاف ما يسيء الى موضوعه ، بمعنى أن من أبغض شخصاً ما ، قتل في نفسه الحب تجاهه ، وربما تورط واضطرب ، وراح يقتله تجاه أي شخص آخر ، وينزلق مع الأيام وينزلق في هاوية التذمر ، والشكوى ، والتبرم بالناس أجمعين . . . ثم لا يجد من بعد ، متعة في الحياة ، ولا يقوى على التعاون مع غيره ، ولا يستريح إلى الوجود ، ولا يأنس بما فيه ومن فيه ، إلى أن تضمحل بهجة قلبه ، ويجف معين نشاطها وائتلاقها ، ثم لا يلقى مع الأيام غير البلاء ، والأذى ، والألم ، والكآبة . . . ومن كان هذا شأنه ودأبه ، وجب عليه أن يتلمس دواء دائه في الحب ، وهو لا محالة واجده ، إذا جد في السعي إليه .

غير ان نقيض الحب ليس ما تعارف الناس على تسميته « البغض » كما يظهر التحليل الأخير ، وإنما نقيضه الحقيقي هو « اللامبالاة » او « عدم الاكتراث » :

إذا انت وقعت على امرأة تبغض رجلاً ما ، وتجهد في الكيد له والنكاية به ، وتنفق اوقاتها وايامها في إيذائه ، وتتلذذ بما يصيبه من سوء ، ويحدث له من مكروه ، فذلك يشير اشارة لا لبس فيها الى انها تحبه ، وانها مستغرقة في هواها له ، ولكنه « هوى مقلوب » ، منحرف الاتجاه ، يتمثل في حركات واعمال وتطلعات مؤذية ، بدلاً من ان يسر المحبوب ويفرحه .

وأوضح فائدة يمكن ان تجنيها الانسانية من هذه القوةِ ـ أي الحب ـ التي لم تعدلها الكهرباء ، ولا توازيها الذرة ، انما هي مكافحة البغض .

أنا أعلم ان الكثيرين يحسبون الحب قوة بناءة بمقدار ما هي هدّامة ، وأعرف أيضاً ان النظرة السائدة إليه منقسمة ـ وهي واحدة ـ بين سخط ورضا ، أو بين إعجاب وازدراء ، وكثيراً ما تنزلق الى اللامبالاة في النفوس . ولكن هذه النظرة خاطئة ، ضئيلة الحظ من المنطق السليم ، فالحب لا يهدم ، ولا يحطم ، ولا يضعف ، وانما الذي يضعف الشخصية الانسانية ويهدمها هو البغض . والبغض هو العاطفة التي تتفشى وتنتشر في البيئات المتأخرة ، المتوحشة ، المنحطة ، بل هو علامة الانحطاط الاولى ، ورمز التأخر ، ومظهر الوحشية البارز في المجتمعات المتباغضة .

علينا إذن أن نقاوم البغض باستخدام قوة الحب في الحياة الاجتماعية ، وعندما أقول « الحياة الاجتماعية » فإنما أعني بها : التربية والاقتصاد والتشريع والإدارة والخدمات العامة والتجارة والتقاليد والعادات والسياسة .

ومقاومة البغض تفضي بنا إلى درسه من جديد ، في ضوء جديد ، أي النظر إليه كعامل مستقل ذي أثر سيء في كيان الفرد وكيان المجتمع ، وتتبع أصوله الطبيعية وبواعثه العميقة .

وأظهر ما ينكشف عنه البحث أن البغض حالة سلبية من حالات النفس ،

ومعنى ذلك ، انه غير موجود أصلاً في النفس الإنسانية ، وإنما انعدام الحب ، أو جفافه ، أو انطفاؤه - قل ما تشاء ، فالأمر لا يعدو أن يكون تشبيها - هو ما نسميه « البغض » .

وهذا الانقلاب في الهوى يحدث غالباً نتيجة انطباعات سيئة تلقاها المحب ممن يحب - وقد يحدث التلقي على غير وعي من الجانبين . واذا بالنفس تنطلق نحو ايذاء المحبوب ؛ سالكة الى غاياتها هذه ، كل السبل والوسائل التي تضعها الظروف في متناولها ، لا تبالي صحيحها من زائفها ، وفظيعها من معقولها في أغلب الحالات ، وكثيراً ما تهتدي الى اختراعات فتاكة ، توصلها الى اهدافها المدمرة . وهذا ما كشف عنه فوفينارغ بقوله : « البغض أقوى اهواء النفس على الاختراع » !

ولكن البغض ، يدمر صاحبه ، وقل ان يضر بالمبغض و« اللاحب » الحقيقي هو ذاك الذي يتمثل ، كما أوضحنا ، في عدم الاكتراث او اللامبالاة . وهذا هو البلاء القاتل ، اذا عم وانتشر في بيئة او جماعة ، وهو الذي يشير الى انحلال العلاقات الاجتماعية وتدهور الناس في هاوية لا قرار لها من الفراغ ، من الظلام ، من الدخان ، والضباب و« ان أقبح خطيئة نرتكبها تجاه اخواننا من المخلوقات الانسانية ، ليست في ان نبغضهم ، وانما في ان لا نكترث بهم ذلك لأن القسوة التي لا تحد ولا توصف ، تتجلى اكثر ما تتجلى ، وراء تلك البرودة العجيبة التي يقابل بها البعض آلام الآخرين واوجاعهم واضطراب نفوسهم ، وتعاسة حالهم ، وانهيار آمالهم ، وتألب الأعداء والأقدار عليهم فتصوروا امًّا تهمل طفلها الرضيع وتتركه الى الأشياء التي تسلّيها » .

أو أباً لا يكترث بولده الجائع ، ويهمله لينفق اوقاته في المائدة الخضراء او قنص اللذائذ ، او مطاردة النساء .

او فتى يهجر من حملت منه ولا يبالي بها ولا بما سيؤول اليه مصيرها وقد كان من قبل يمنيها احلى الأماني .

إنها الأمثلة تعطيك اذا تمثلت بوضوح كلا منها على حدة ، صورة البشاعة في

اللامبالاة عند اللامبالين ، وهي بما تنطوي عليه من جفاف وبرود وسخف وغلظة ، تمثل الصورة الحقيقية لما هو نقيض الحب .

قد يكون البغض سخيفاً ، وقد يكون مضحكاً ، وقد يكون مدعاة ألم وجالب همّ ، ولكن اللامبالاة تحملك دوماً على الأسى والاكتئاب ، والشعور بفظاعة تأثيرها ، وهمجية أصحابها .

والحبُّ وحده هو عالم الأنثى الدافىء بدءاً وتكويناً وكل جدال فيه عقيم ، لأنه الواقع الذي لا مرد له ، ولا غنى عن مواجهته ، ولا فائدة في تجاهله أو التهرب منه .

على أن هذه الخاصة في الحب تلقي النور عليه ، بنسبة ما تلقيه على المرأة كروح ، كجسد ، كعقل ، كغريزة ، كإنسان ، كقوة . . . ثم تخولنا الحق في تركيز القواعد العامة ، التي يحتاج إليها الناس في سلوكهم العملي ، فهي وان كانت يقينية من اليقينيات الواقعية ، تظل غنية بالنتائج التي يمكن استنتاجها منها ، غنية بالآراء والنظريات التي يمكن أن تنبثق عنها وتدور حولها ، غنية أخيراً بالقوى التي يمكن الإفادة منها ومن توجيهها ، حسب التجارب والمجتمعات والعصور ، حسب الغايات والأغراض .

وأول ما يطل منها أن فضاء العواطف ، والأحاسيس ، والالهامات ، والخواطر ، والهواجس ، والأحلام ، على تنوعها وتشابكها وتغايرها وتنازعها ، هو الفضاء الطلق ، المنير الذي تتقلب فيه روح المرأة ، وبه تتنفس بحرية وارتياح ، وفي مجالاته تنمو وتشب . . . ولا تشيخ أبدا . . . هم إن هذا الفضاء فضاء العواطف ـ وما إليها . . . ـ الذي تتقلب فيه المرأة ، ليس شيئاً بسيطاً ، وإنما هو على جانب ضخم ، ضخم من التعقيد والتركيب ، إن في تكوينه ، وإن في مظاهره ، وإن في ألوانه وتقلباته ، فلا يتاح للرجل ، أي رجل ، أن يخوض فيه ، بالغا ما بلغ من القوة والمعرفة وشدة الأسر وصفاء الذهن ، ولا يستطيع أن يلجه بنجاح وتوفيق ، إلا من كان شاعراً ، أو عبقرياً موهوبا ، أو إنساناً قريباً بتكوينه الروحي ، كل القرب ، من الروح النسوي .

ولكل عصر فضاؤه العاطفي الخاص ، كما أن لكل بيئة فضاءها هذا ، وحتى لكل فتاة ، ولكل امرأة فضاؤها العاطفي . . . وأن هذه الفضاءات المتعددة تتداخل فيما بينها ، وتتفاعل ، ويتراوح كل واحد منها سعة وضيقاً . غنى وفقرا ، وفق العصور والبيئات ، وأخيراً أن كل فضاء عاطفي عرضة للتغير والتقلب .

والسبب في هذا التقلب والتعقد الذي نلمسه لدى كل فتاة وامرأة ، لا يرد إلى انها امرأة ، اي مخلوق آخر غير الرجل ، كما حسب الناس ويحسبون ، بل مرده الاصيل إلى طبيعة الحب نفسها حين يلابس النفس البشرية ، ويسيطر على أكوانها ، ويوجه تصرفاتها ، ويتحكم في مصيرها الاخلاقي والاجتماعي والسياسي . واذا تراءى لنا ان الرجل أقلّ تعقداً وتقلباً من المرأة ، فلأن الحب لا يتحكم به ، ولا يستحوذ عليه ، ولا يوجهه داخل ذاته وخارجها بنسبة ما هي حاله مع المرأة « الحب حادثة لأن الحب حياة الأنثى وتاريخها الحافل بكل ما يدخل فينا البهجة واللذة والسعادة اذ يمكنها ان تحيل جوّنا الى نعيم او جحيم » .

والمرأة تظل ، على الرغم من كل تطور في الحضارة ، وتبدل في الاوضاع ، وتحول في الظروف ، عالقة بالحب تحييه ويحييها ، ويظل الحب عالقاً بها ، متربعاً على عرش قلبها ، آخذاً باقطار تفكيرها لا يبارحها ، وان حاولت ان تبارحه ، ومنه تنفذ إلى صميم الفكر الانساني ، أي الى القوة المطورة ، المبدعة ، المحوّلة لتدفع بالانسانية قدماً في معارج الرقي والعمران والبناء الروحي . . . رغم كل القوى المخربة ، والانحلالات المجمدة . وهذا ما ادركه إيمرسون ، مفكر اميركا العبقري ، حين قال : « هناك فن يفوق التصوير ، ويفوق هندسة الابنية ، ويفوق الموسيقى ، ويفوق الازهار والنباتات وسائر الفنون الاخرى ، الا وهو فن التحدث إلى الآخرين ، فان الحديث المنمّق ، الحي ، الحكيم ، في آن واحد ، يشكل زهرة الحضارة ، وبه تتمثل عواطفنا ، ومعرفتنا ، وأعمق ما في سرائرنا ، وعن طريقه نجد النساء ، بالاضافة إلى نفوذهنّ في المجتمع ، انهن ممدنات الانسانية . والمدنية في نظري ، تطّرد تقدماً ، باطراد قوة النساء الفاضلات » .

ثم ان للحب صفة اجتماعية تلازمه كما يلتزم بها ، إلى جانب اوصافه النفسية

الفردية ، بمعنى ان ظروف المحب ، امرأة كان او رجلاً ، تفعل فعلها العميق البالغ في كل حب يظهر . . . فإذا لحظنا مع تريفيليان المؤرّخ الاجتماعي الكبير ، ان « الظروف الاجتماعية تنبثق عن الاوضاع الاقتصادية ، بمقدار ما تنشأ الاحداث السياسية بدورها ، على وجه التقريب ، عن الاوضاع الاجتماعية » ادركنا دفعة واحدة ، اسرار التقلبات والتعقدات والطلاسم التي تطفو على سطح كل حياة غرامية ، وبالتالي ، على سطح حياة كل امرأة . فالاوضاع الاقتصادية ، كالظروف الاجتماعية وكالاحداث السياسية ، أمور لا تستقر ولا تطمئن ولا تهدأ ، بل تخضع دوماً للتطور والتحول والتبدل . . .

فأين نحن الآن من الحب الذي لا شائبة فيه ؟

ان المتأمل البصير ، الذكي ، الذي يعرف حياة العصر ، ويتفهم اسرار الوقائع اليومية التي تجري على أديم هذه الارض ، واجد نفسه لا محالة - وهو يلاحظ ويدرس - أنه إزاء اوضاع اجتماعية تدل دلالة لا شبهة فيها ، على ان الانسانية تجتاز اليوم مرحلة انحطاط روحي فاجع ، لا عهد لها به من قبل .

ولن يحتاج هذا المتأمل الذكي الى كبير عناء ليدرك ان عهد الانحطاط الذي يشهده ، إنما نشأ عن بعض الافكار التي نشرها بعض الفلاسفة ، وروجها أصحاب المآرب والأغراض ، وكان لها ان تفعل فعلها البغيض في العقول والأفئدة والنفوس .

وهنا ، في هذه الحمأة من الفقر الروحي والتيه العقلي أصيبت المرأة - والحب رسالتها المثلى - بما عطل كيانها الصحيح ، وحجبها عن النور الذي تهتدي به وتهدي اليه ، وأصبحت « شيئاً » كهذه الاشياء ، التي تباع وتشرى وترهن وتستعمل في مختلف المرافق والاشغال ، ولم تبق ذلك الكائن الذي يلهم ويبدع ويضحي وينير ، فزادت البلاء الذي يرسف الناس فيه . وكانت بميعانها وضعفها واسترسالها مع افكار المعاصرين ، عامل انهيار ، وأداة تخريب ، مما قدم لاولئك الفلاسفة المتحللين أدلة على « صواب » آرائهم ، وأمثلة لا تنكر على واقعية افكارهم .

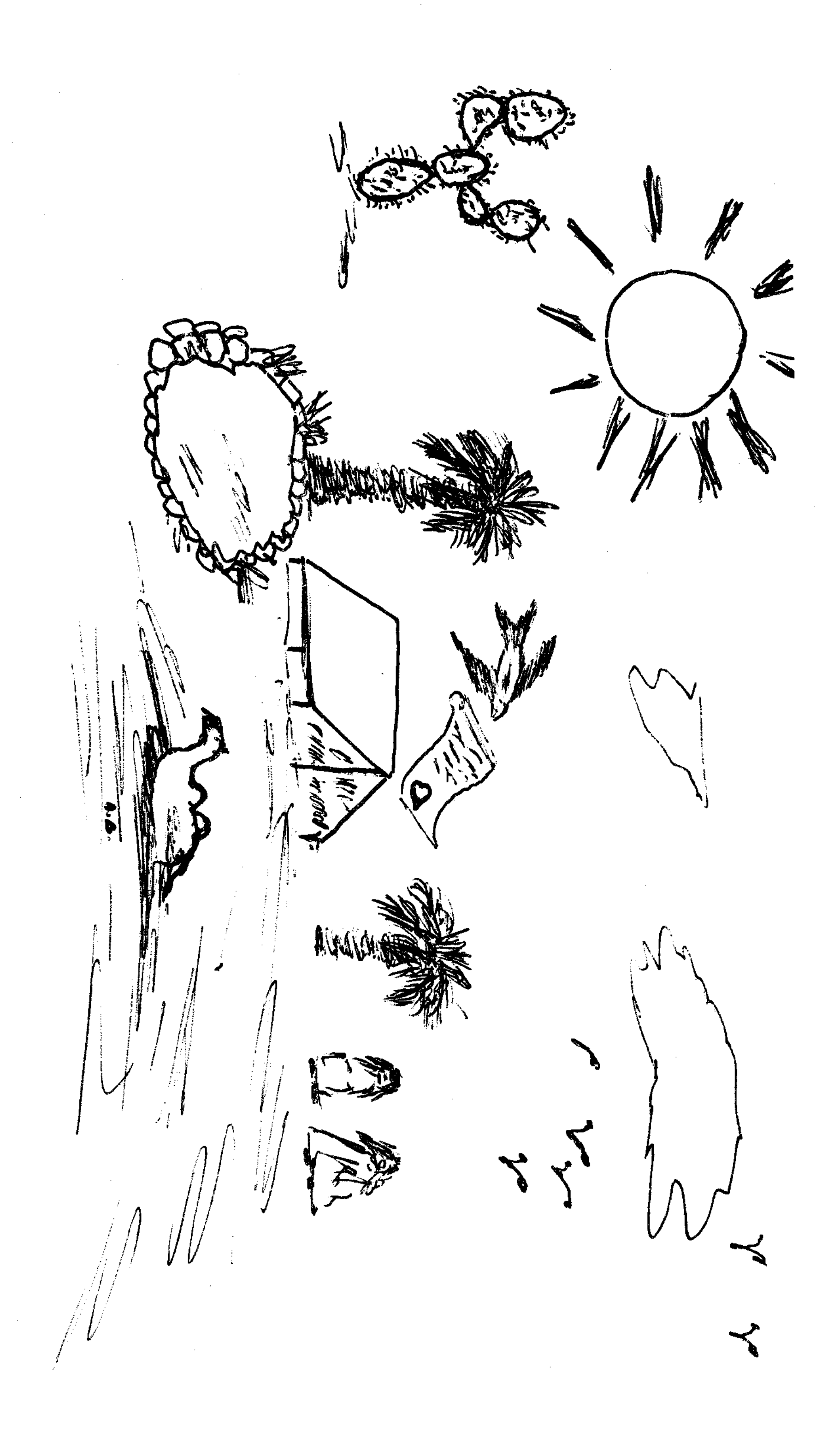
هكذا . . نعم ! هكذا ، سقط هذا العصر بين الوقائع والفلاسفة ، في حلقة

مفرغة . فاذا لجأ الى مفكريه ، وجد لديهم ، او لدى اكثرهم - كي لا نحيد عن الانصاف - تلك الافكار الضعيفة المخربة . واذا لجأ الى الوقائع ، وجدها أمرّ وأدهى ، فما كان منه الا ان استرسل ثم لم يتمالك ، وما زال هائماً سادراً في استرساله . . .

تلك هي قصة الحب مع الحياة العصرية ، وستظل تتكرر ما دامت المجتمعات العصرية موزعة بين الف تيار وتيار من الآراء السياسية ، والحزبيات العقيمة ، والاتجاهات المتباينة ، الناشئة عن الانانيات الفردية ، والمصالح الشخصية ، والمنازعات اللا أخلاقية .

ثم لن يحتاج المتأمل البصير الى بذل جهد كبير ليعرف ان الحب كان ضحية المدنية الراهنة ، وأنه كبش محرقتها ، اذا انصرف الناس عنه ، وحولوه الى شيء تافه ، سخيف ، مضحك ، ولكن مؤلم ، حين ربطوه بالغريزة ، والمال ، والسياسة الاقتصادية ، وحفظ النوع ، وأبعدوه عن معاني البطولة ، والتضحية والخدمات الانسانية القيمة . . . ربطوه بالمادة ، وأبعدوه عن الروح ، فأفسدوا بذلك جوهره ، وقضوا على ما فيه من خير وجمال .





الفصل السادس

التصوّف والحبّ

حين امتزج الهوى العذري بالروح الإسلامي أفضى إلى التصوّف العربي الخالص الذي لا تشوبه شائبة من فكر أجنبي او شذوذ عقلي . وامتزج الهوى العذري بالايمان الإسلامي ، وبالفلسفة الاخلاقية المثالية الأغريقية ، وتألف من هذه العناصر الثلاثة جو روحي - فكري جديد وخاصة حين انتشر التفلسف وشاعت افكار الفلاسفة اليونانيين اما المرأة العربية ونظراً لصراعها المستمر مع الجواري الاجنبيات ، فقد غلبت على امرها في ذلك الصراع وفقدت شخصيتها مع الزمن ، وانتهى كل ما كان في يدها من سلطان وبهذا ، سادت الاتجاهات الاجنبية في ديار الاسلام ، وأخذت المجتمعات تخضع لتيّارات متعارضة ، متغايرة ، من التفكير والشعور ، والسلطة تنتقل من الفرس إلى الأتراك ، ومن الاتراك للفرس فمن تلاهم من اخلاط الشعوب .

وعندما غُلبت المرأة العربية خسر التصوف عنصره العربي - وهو الهوى العذري - واقتصر على ما فيه من روح اسلامية وفلسفة أغريقية وكان قد تعرّض لانقلابات وتفجرات داخلية عنيفة على يد ابن سينا واخوان الصفاء ومن اشبههم من المتفلسفة والمتكلمين ، فحاول الغزالي ان ينقذ التصوف من الروح الفلسفية التي سيطرت عليه لأنه كان يمقت الفلاسفة ولا يثق بأخلاقهم ، فقصره على جوهره الاسلامي ، ووفق الى ما أراد في ظل السلجوقيين ولكنه لم يستطع أن يتجاوز في نصره الذي أحرزه ، بلاد المشرق إلى المغرب ، فقد ظلت الحركة الفكرية هناك ناشطة ، وظل التصوُّف مقروناً بالحب ، بما يشبه الهوى العذري ، ولمع نجم محيي

الدين بن عربي في الأندلس ، ثم في المشرق ، وأخذ التصوُّف يستعيد بتأثيره جوهره الغرامي ، ورموزه العذرية ، فكان عمر بن الفارض ، أشهر شعراء الصوفية في القرن السابع للهجرة ، وزعيمهم في المشرق ، يتحدّث عن ليلى وعزة وبثينة ، وهو يرمز بهذه الاسماء إلى « الذات الالهية » كما يتحدث عن المواضع التي كانت تثير حنين العذريين .

وفي نهاية القرن الثالث عشر الميلادي قرّ التصوف واطمأن ، اذ اصبح مؤسسة لها فلاسفتها وأدباؤها وطقوسها وتاريخها ورموزها وشعائرها ورجالها المعروفون ، بهم يقتدي الناس ، والى مؤلفاتهم يرجعون ، وعلى منوالهم ينسجون . . . كالغزالي وابن الفارض بيد ان تحوُّل التصوّف الى مؤسسة في المحيط العربي ، لم يكن ليتمّ إلا باجتماع ثلاثة عناصر هي عنصر العاطفة والفكر والأخلاق .

وكان العنصر العاطفي في تصوُّف العرب ، تلك النزعة الى الحب البارزة في بكاء الاطلال عند الجاهليين والاستمتاع الرائع بالتحدث عن المرأة والتشبيب والغزل والنسيب ، حتى ليحسب المرء ، وهو يطلع على تلك الأجواء ، ان الحب نفسه تحوّل الى « قيمة » ، إلى « مثل أعلى » كما رأينا في فصل سابق .

أما العنصر الفكري في نشوء التصوُّف ، فإننا نجده لدى العرب ماثلاً في « الكهانة » التي راجت سوقها في الجاهلية ، واخرجت عدداً من الشخصيات المعروفة مثل شقٍ ، وسطيح وغيرهم .

والكهانة أصلها نفسي ، وهي تكون في العرب على الأكثر ، وفي غيرهم على وجه الندرة ، لأنه شيء يتولد على صفاء المزاج الطبيعي وقوة مادة نور النفس . وإذا انت اعتبرت اوطانها رأيتها متعلقة بعفة النفس ، وقمع شرها بكثرة الوحدة وإدمان التفرُّد وشدة الوحشة من الناس وقلة الأنس بهم . وذلك ان النفس اذا هي تفرّدت فكرت ، وإذا هي فكرت بعدت ، واذا بعدت هطلت عليها سحب العلم النفسي ، فنظرت بالعين النورية ، ولحظت بالنور الثاقب ، ومضت على الشريعة المستوية ، فأخبرت عن الاشياء على ما هي به وعليه . وربما قويت النفس في الانسان ، فأشرفت على دراية الغائبات قبل ورودها اما صفاء الذهن فيتحقق باعتزال الناس ، والانصراف عن الشهوات المادية ، وضبط النفس ، والتأمل الطويل ، والاستغراق في التفكير ، وتجنب كل ما من شأنه ان يزيد في نشاط الجسد . وصفاء الذهن يؤدي

بدوره ، إلى نظرات صائبة في الكون والطبيعة والحياة والمجتمع والنفس البشرية واهتدى العرب في الجاهلية إلى تلك الحقيقة النفسية عفواً ، وطبّقوها ونفذوا منها إلى « التصوُّف » حيث يأتي دور الحب في إيصالهم إلى ذلك الجو الفكري ، وانغماسهم فيه ، فإن من شأن الحب ـ حين يكون صادقاً ، عميقاً ـ ان يطهّر النفس تطهيراً فكرياً خالصاً في اول مرحلة ، وينتقل بها من ثمة الى التطهر الاخلاقي . وذلك ان المحب يقوم بعملية « انتخاب » حين يعشق فتاة معينة ، ويختارها قلبه ، ويفضلها على كل من عداها ، ثم ينصرف ذهنه بعد ذلك إلى التفكير فيها ، وتذكر أحوالها ، حتى تستقطب جميع أفكاره ، وتستأثر بعواطفه ، فيصفو ذهنه ، ويأخذ بعد ذلك في التأمل والاعتزال ، وربما أهمل شؤون جسده ، وغفل عن كل ما هو خارج عن منطقة فكره الجديد ، ويصبح بذلك « متصوفاً » على غير وعي منه والمحب المستغرق في حبّه لا يحتقر الجسد ، وانما يهمله او يضرب صفحاً عنه ، ومن غير وعي ، فيتلاقى هو والفيلسوف عند نقطة واحدة ، وان سلك كل منهما إليها طريقاً غير الطريق التي سلكها الآخر والحب يفضي في كثير من الحالات الى التعبّد نتيجة احوال نفسية عانوها خلال تجارب غرامية قاسية ، انتهت بالخيبة والمرارة . وقصص النساك والناسكات الذين انتقلوا على يد الحب إلى التصوّف اكثر من ان تحصى في تاريخ الاجتماع العربي .

ومما لا شك فيه ان قول الرسول (صلعم) « من احب فعف فكتم ومات مات شهيداً » قد بلغ مسامع الفتيان والفتيات آنذاك فكان الجهاد الذي يؤدي الى الشهادة ذوداً عن حرمات الدين ثم اصبح كل انسانٍ يجاهد نفسه ، وينشد المتعة الكبرى في مجاهدتها ، الى ان يحقق نصراً مبيناً في قهرها ، ويعمل على صفائها من كل شائبة ، ويطهرها من كل رجس ؛ واول مغالبة لها تكون في ذلك الصراع الذي ينشب في داخلها حين يلج بها الهوى ، وذلك هو « التصوف » في أول مرحلة ، وذلك هو العنصر الفكري فيه ، لان من يصارع هواه ، إنما يخضع في صراعه معه لفكرة تستحوذ عليه .

والاستشهاد في الحب إنما يكون استشهاداً حين يلتزم المحب بالعفة والكتمان وهذا هو العنصر الاخلاقي ، في التصوُّف الناجم عن العشق في حياة العرب . ومعنى ذلك ان التصوّف العربي الخالص إنما تكوَّن بفعل عوامل ثلاث : الحب ، حب المرأة على وجه التخصيص ، والإيمان بالله ، والالتزام بالعفة ، ثم لم يشطح ،

ولم يتحول إلى شذوذ فكري ، وتخاذل نفسي ، واضطراب اجتماعي ، وانحلال في النشاط المدني في أواخر القرن الخامس للهجرة ، إلا على أيدي الأجانب ، ممن اضافوا اليه الأحاجي والرموز ، وخلطوه بالسفسطات والأوهام ، وحوّلوه الى تخاذل وتواكل وتكاسل وتكيات ودراويش وما أشبه . . .

ذلك هو أصل كل تصوّف ، وما عداه فتزيّدٌ لا يشير إلى واقع ، ولا ينم عن عافية في الروح ، وسلامة في التفكير .

والعفة عند العرب ـ كما رأينا في الفصول السابقة ـ جوهر الحب ومدار نموه ، ومرتكز تساميه ، حتى عند الوثنيين منهم ، فكيف به اذا حل في قلب مؤمن ، واستولى على افكاره ؟! لا بد له حينذاك من ان يصرفه إلى طلب السلو من ايمانه ، ونشدان العزاء في تعميق ذلك الايمان ، وتطهير النفس ، والاقبال على الفضائل الخلقية العالية ! . .

وقد شعر الأدباء والمفكرون والكتاب والفقهاء بالانحلال الذي سرى الى المجتمع العربي ـ في العصر الذي انتشرت به الصوفية ـ وكانوا يتلهفون الى ايام العرب الخوالي التي عرف بها الحب الصحيح ، العفيف ، الخالي من أدران الإباحية وشذوذ العناصر الأعجمية .

قال احد الرواة المعروفين : « سمعت بعض المدنيين يقول : كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها حولاً ، يفرح ان يرى من يراها ، فان ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار . واليوم يشير اليها ، وتشير اليه ، فيعدها وتعده ، فاذا التقيا لم يشك حباً ولم ينشد شعراً ، وقام اليها كأنه قد أشهد على نكاحها أبا هريرة . . . »

وفقدت المرأة لكثرة التفلسف حولها شخصيتها وفسدت الأخلاق في محيط الخلافة المترامي الأطراف . وكان العامل الأكبر في ذلك الفساد الأخلاقي وقوع السلطة في ايدي الجواري ، وتدخل الأعاجم في إدارة البلاد وتصريف الأمور ، فما أقبل القرن الرابع للهجرة إلا وعمّ الخطب ، واستفاض الشر ، وكثرت الفرق والمذاهب الدينية والأحزاب السياسية ، وراح المفكرون يبحثون عن حل لهذه المعضلة ، ويدرس المصلحون سبل الخلاص من تلك الورطة الى ان لمع نجم الغزالي واشتهر .

أدار أبو حامد الغزالي نظره فيما حوله من اتجاهات ومبادىء ومناهج سلوك

وأعمل فكره في العقائد ، والفلسفات ، والنظريات الشائعة ، وكان همه الأكبر منصرفاً ـ فيما يظهر ـ الى ناحيتين : سلامة الاعتقاد الديني وسمو الاخلاق ، فلم يجد من يطمئن اليه في الفِرَق والمذاهب السارية يومذاك غير « الصوفية » إذ كتب في « المنقذ من الضلال » يقول :

« الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة . وان سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الاخلاق ، بل لو جمعوا عقل العقلاء وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرتهم واخلاقهم ويبدلوه بما هو خير لم يجدوا اليه سبيلاً ، فان جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء النبوة على وجه الارض ، نور يستضاء به » .

نحن لا نعرف الأشخاص الذين كان يتصورهم الغزالي ، عندما خط هذه الكلمات ، ولا ندري ما اذا كانت رابعة العدوية مثلاً واحدة من هؤلاء الذين عناهم حجة الاسلام ، حين وضع تقريراته هذه عن المتصوفين ، ولكنه يبدو مأخوذاً بالجانب الخلقي من سيرتهم . وأبرز ما في اخلاق المتصوفين الحقيقيين ، إنما كان تلك العفة التي تسيطر على نفوسهم سيطرة كاملة ، مطلقة .

هذا ما يبدو ، ولكن امر الصوفية كما واجهه الغزالي من بعد ، انحصر في الاعتقاد وصحته ، والرياضة الروحية ، والاعتزال ، والانصراف الى العبادة ، والزهد في الدنيا ، واحتقار الجسد ، والقضاء على الاستقلال الفكري ، فما أوشك القرن الهجري الخامس على نهايته ، حتى انحلت العزائم ، وفشا الاتكال في الناس ، وضعف كل نشاط فلسفي ، وانتشرت الطرق الصوفية ، وأخذت تنتشر وتمتد ، مع تدخل الاجانب في البلاد (الحروب الصليبية) واضطراب الحالة السياسية العامة في الشرق .

واذا نحن فكرنا في هذه الصوفية التي دعا اليها الغزالي ونافح عنها ، وسبّح بحمدها ، نجد انها دخيلة على العرب ، غريبة على تفكيرهم ، بنسبة ما هي متناقضة في النتائج التي نجمت عنها ، مع الاسلام نفسه . ولا غرابة في ذلك ما دام الغزالي بعيداً عن العروبة ، وثيق الصلة بالسلاجقة الذين اساؤوا السلوك مع الحجاج الأجانب يوم كانوا يؤمون الأرض المقدسة وما انفكوا يسيئون اليهم حتى

اندلعت الحروب الصليبية ، مع ان شيئاً من ذلك لم يحدث عندما كانت السلطة بيد العرب ولا سبق لأجنبي قط ان شكا من تصرف العرب معه في هذه الديار . وكان من واجب الغزالي ـ المتصوف ـ ان يستخدم نفوذه لدى السلجوقيين في منعهم من تلك الإساءات ، وان يقاوم اعمالهم التي عادت على الشرق العربي كله بالوبال ، ثم كان من واجبه ان يعلن الجهاد ، بعد ان دخل الغزاة ديار الاسلام ، ولكنه قبع في « تكيته » يتلو الأوراد ، وينظم الأشعار التي يعبر بها عن احاسيس لا علاقة لها بالحياة من قريب ولا من بعيد . كل ما عمله انه توجه نحو السماء ، ونسي كل ما حوله ومن حوله من الأقارب والأباعد .

وكان من شأن ذلك التوجه نحو السماء ، والاستغراق في التصوف ان انقلبت المفاهيم العادية لدى الغزالي انقلاباً وقف حاجزاً بينه وبين اكثر الخلق ، فإذا فكر مثلاً في الحديث الشريف « من عرف نفسه فقد عرف ربه » انتقل ذهنه رأساً الى « معرفة ربه » وأصبحت معرفة النفس وسيلة لا اكثر الى تأملاته الصوفية ، فلا يحاول بشكل او صورة او معنى ان يستل من معرفة النفس فكرة او مبدأ او قاعدة يصح البناء عليها في الحياة العملية اللهم سوى محاربة القوى الغضبيّة والقوى الشهوانية .

وقد اقرّ هو نفسه بتلك الهوة التي فصلته عن واقع الحياة إقراراً ضمنياً حين بيّن في أحد كتبه أن « النفس لها فعلان : فعل بالقياس إلى البدن ، وهو السياسة ، وفعل بالقياس إلى ذاتها وإلى مبادئها وهو التعقل . وهما متعاندان ، متمانعان ، فاذا اشتغلت بأحدهما انصرفت عن الآخر ، ويصعب عليها الجمع بين الأمرين . وشواغلها من جهة البدن : الإحساس ، والتخيل ، والغضب ، والخوف ، والغمّ ، والوجع . وأنت تعلم هذا بأنك إذا أخذت تفكر في معقول ، تعطل عليك كل شيء من هذه إلا أن تغلب وتقسر النفس بالرجوع إلى جهاتها . . . وأنت تعلم أن الحس يمانع النفس عن التعقل إذا أكبت على المحسوس من غير أن يكون أصاب آلة التعقل أو ذاتها آفة بوجه ، وتعلم أن السبب في ذلك ، هو اشتغال النفس بفعل دون فعل » .

وعلى هذا النحو كان اشتغال الغزالي بالمعقولات صارفاً له عن الوقائع التي تعتبر أساسية في كل حياة ، وكان اهتمامه بمقاومة الحس « وهو يعلم أنه يمانع النفس عن التعقل » سببا في إغفاله كل بحث أو تفكير في أمور الدنيا . . .

ومن هنا ، تسرّب الخطر الى حياة الذين أنشأتهم مدرسة الغزالي ، فالزهد ، والتنسك ، والرياضات الروحية ، واعتزال الناس ، وما اليها من شؤون ، إنما تثمر أحياناً ، حين ينصرف إليها أفراد معدودون ، وفي أعمار معينة ، بحيث لا تستغرق جميع أيامهم على وجه البسيطة . أما إذا شاعت ، وأصبحت نظاماً اجتماعياً يأخذ به الكبير والصغير ، والنساء والرجال ، والفئات والجماعات ـ كما جرى في العهود التي تلت مدرسة الغزالي ـ فإنها تفضي حتماً إلى الشلل ، إلى الجمود ، والخمول ، فالانحطاط الذي لا يبقى معه للفكر قيمة ، ولا للخلق معنى .

وهذه هي النتيجة التي أفضت إليها مدرسة الغزالي الصوفية . وما كانت لتفضي إليها إلا أنها غير عربية ، وغير إسلامية ، فقد كانت مزيجاً من التفكير الفارسي والهندي والأغريقي ، وليس لها في جوهرها من أصلها العربي ـ الإسلامي ، سوى الحروف التي كتبت بها .

التصوف العربي مبني على الحب العفيف ، ومنه ينتقل إلى مشارفة الأكوان العليا . وتصوف الغزالي ومن تبعه ، لم يكن يتعرف إلى الحب الإنساني الصحيح ، الذي يصدر عن عافية في الروح والقلب . . .

***

غير أن التصوّف الذي ظهر في بلاد الأندلس والمغرب ظل يحتفظ بعض الشيء بأصالة الروح العربية ، وظل مبنياً على قاعدة من الحب الإنساني ، كما ظهر لدى الشيخ محيي الدين بن عربي(٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ/ ١١٦٤ ـ ١٢٤٠م) فهذا علمٌ من اعلام الصوفية التي ظهرت بعد الغزالي بقرن تقريباً ، ولكنك تشعر لديه بنفحة من نفحات الحياة التي يعجزك العثور عليها لدى الغزالي وزمرته ، فهو القائل :

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وايماني

وابن العربي لا يشذ ، حتى في تصوفه عن القاعدة التي عرفتها لدى أهل الكوفة والبصرة والطائف فيما مر بك من حكايات ، فقد تزوّج بمريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمن الباجي ، وعنها أخذ الورع ، وتمرّس بالتقوى ، وكانت هي التي تحدوه على التأمل والتفكر ، وتثير في سريرته المعاني النبيلة ، والخواطر السامية حتى تدفق بالشعر ، وتعلّق بالصور الشعرية الصوفية .

ثم لم تكتف زوجته بذلك ، وانما شجعته على تلقي دروس في التصوُّف من عجوز تسمّى نونه ، وهي فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية ، فلزمها سنتين بوصفه خادماً ومريداً .

وعندما ذهب إلى مكة تعلق هناك بفتاة اسمها « نظام » واشتد كلفه بها ، ونظم فيها ديواناً كاملاً من الاشعار الغزلية ، اوحاها اليه حبه لها ، دعاه « ترجمان الأشواق » .

والقرابة بين الصوفية والشاعرية واضحة ، فالشاعر انما يعتمد في فنه على احساسه ، وكذلك هو شأن الصوفي : الأول يصغي لما يدور في خلده ، ويحاول ان يصفه ، والثاني يأخذ بالإلهام في تقرير الحقائق التي يؤمن بها . وليس لكتاب « الحكمة الإلهامية » الذي وضعه ابن عربي في الرد على الفلاسفة ، من معنى سوى ان الصوفية ضرب من الشاعرية .

***

. . . وإذا كانت الصوفية ضرباً من الشاعرية ، فهذا يعني ان رجالها إنما ينبغي أن يكونوا في عداد الشعراء ، قبل أن يكونوا من أهل الفقه ، وأئمة الشرع ، وذوي الفلسفة ، لأن اعتمادهم فيما ينهون إلى العالم الخارجي عن اكوانهم الروحية ، على الإحساس والالهام والتجارب النفسية الباطنة الصرف ، وبهذا لا يختلفون عن الشعراء في شيء .

والواقع ان عدداً كبيراً من هؤلاء المتصوفين مارس « نظم » الشعر ، ولكنهم لم يوفقوا إلى ما وفق اليه الشعراء المطبوعون الذين لم يحملوا قرائحهم حملاً على العطاء ، ولم يجهدوا أذهانهم ويرهقوا أنفسهم بالافكار الفلسفية والحذلقات والرموز . ولذا ، ظهر عليهم التكلف ، وكانوا كمن يصطنع الحب من المتغزلين ، ويغالب قلبه على الشعور بعاطفة لا يشعر بها .

ولنا فيما تركه الغزالي من قصائد برهان دافع ، وحجة مقنعة ، فالغزالي لم يكن شاعراً ، وانما كان في حقيقته مفكراً ، فلما اعتنق التصوّف مذهباً اعتنقه عن دراسة عميقة ، وابحاث طويلة ، ومقارنات عقدها بين مختلف الآراء ، وكان حرياً به أن يستمر في مقارناته وأبحاثه ودراساته ولا يتخطاها الى نظم الشعر ، تأمل قوله في قصيدته الهائية :

ما بال نفسي تطيل شكواها   إلى الورى ، وهي ترتجي الله
يفسد اخلاصها شكايتها   ذاك الذي راعها وأرداها
لو انها من مليكها اقتربت   واخلصت ردّها لأدناها
لكنها آثرت بريَّتهُ   عليه جهلاً به ، فأقصاها
أفقرها للورى ولو لجأت   إليه من دونهم لأغناها
تشكو إلى خلقه كأنهم قد   ملكوا نفعها وضرّاها
لو فوّضت أمرها لخالقها   وصحَّحت صدقها وتكلاها
عوّضها من همومها فرجاً   ولم يدعها بطول غماها

ليس في هذا الكلام نسمة واحدة من نسمات الشاعرية ، وانما هو مجموعة ألفاظ أُخذت من مطالعات الغزالي ، وصيغت في شكل خلا من رونق النثر ، وطلاوة الشعر .

ولكن الغزالي سنّ بهذه الطريقة سنة للمتصوفين من بعده ، فراحوا يقلدونه في « النظم » ، ومعظمهم بعيد عن الروح الشعرية .

أما الذين كانوا منهم على شيء من الاتصال بالحياة ، بالواقع الحسّي ، بمعاني الوجود العملي ، فقد وفقوا في بعض ما نظموا إلى تعبيرات شعرية صحيحة كابن عربي ، والسهروردي في قصيدة « أبداً تحنّ اليكم الأرواح » الشهيرة ، وابن الفارض في بعض المقطعات . وسر التوفيق الذي أحرزه هؤلاء ـ وهو توفيق جزئي ـ انهم « كانوا ينقلون الصبوات الحسية الى الأغراض الروحية » كما عبر الدكتور زكي مبارك في سفره الضخم « التصوُّف الإسلامي في الدين والأخلاق » . أي لأنهم أحبّوا كما أحبَّ غيرهم من الناس ، ومرّوا بالتجربة التي يمر بها الشعراء . فقد علمت ما كان من أمر ابن عربي وصلته الوثيقة ببعض النساء ؛ ويقال ان ابن الفارض بصر ذات يوم بامرأة جميلة متزوجة ، فهام بها ، وكتم هيامه ، والى هذا الهوى المكتوم يعود الفضل في تفوقه الشعري على غيره من اهل طريقته .

ومن الشائع ان لأهل هذه الطريقة فضلا في تطوير الغناء العربي ، وانهم استطاعوا ان يضيفوا اليه جديداً ، وليس ذلك ببعيد ، فقد شغلوا بالغناء ، واهتموا كثيراً في حلقاتهم وخلواتهم بهذا الفن ، غير ان مقدار تأثيرهم فيه ما يزال غامضاً ،

يحتاج الى كشف وايضاح . وهذان امران في غاية العسر ، لان الغناء العربي القديم الذي أخذوا عنه وطوّروه لا يزال نفسه غامضاً في كثير من نواحيه . واذا كان لنا ان نقيس اثرهم في الغناء على اثرهم في الشعر ، يصبح من الصعب الحكم بانهم أعطوا شيئاً ذا قيمة .

نعم ! هنالك جانبان أغناهما المتصوفون : الاول هو الاخلاق ، فالاخلاقيون الذين نجدهم في رجال الصوفية بلغوا الذروة في تحليلاتهم النفسية ، ودراساتهم العميقة ، وملأوا تراث العرب الذي بنوا على اساسه من بعد ، بالوصايا والأدعية والحكم والسير والمعاني العالية ، بحيث يصح القول : انه أصبح أغنى تراث اخلاقي في تاريخ الحضارة .

والجانب الثاني هو « اللغة الفلسفية » فقد وضع الصوفيون من المصطلحات والألفاظ والرموز ما جعل التصوف علماً قائماً بذاته ، يحتاج من يريد الإحاطة بدقائقه ، الى اعوام واعوام ، كي يتاح له الاطلاع على اسراره وتذوق المعاني التي أودعوها للكلمات . وهذا ما حدا شرّاحهم وأقطابهم على وضع معجمات باصطلاحاتهم وبيان المعاني التي يرمزون اليها في الألفاظ والكنايات والاستعارات التي استعملوها وانها لتشبه في الكثير منها لغة الحب وهي تعبِّر عن حالات الحب ، ورموزها مأخوذة من اوضاع المحبين النفسية والفكرية والعاطفية والمسرحية اي الظاهرة .

والشاعر الموهوب الذي يمرُّ بتجربة او بتجارب غرامية قاسية ، الى ان يشارف ملكوت المثل العليا ، يصبح صوفيّ الاتجاه ، وتصبح لغته واخلاقه وآثاره الأدبية ذات أجواء خاصة ، لها معانيها الخاصة وأثرها الخالص في النفوس .



الفَصْل السَّابع

الفروسيَّة والحُبّ

ومن منّا لا يذكر في هذا المجال الفارس العربي عنترة مثال البطولة والإباء والحبّ ؟

لا تدوم المقاييس الأخلاقية في اي مجتمع بشري كان لأنها لا تسير في خط ثابت ، وإنما هي تتغير دوماً وتتبدل بتبدل الحالات والأوضاع العامة . فالناس يخضعون في ايام الحرب لجوّ يختلف كل الاختلاف عن الجو الذي يحيون في ظله أثناء السلم ، وهم في حالة الرخاء والازدهار غيرهم في حالات الضيق والأزمات الاقتصادية . وتفكيرهم كشعورهم إذ يعيشون في أمن ودعة ، يتحول كل التحول عندما ينتقلون إلى عهود تسودها الفتن والاضطرابات .

والفروسية في الجاهلية وصدر الإسلام ـ مع كل ما تجر وراءها من قيم ومعتقدات وأخلاق ومبادىء واتجاهات كانت أساسية في شبه الجزيرة العربية بمعنى أنها أحد معطيات المناخ والتربة وكانت طوراً من أطوار الاجتماع العربي حدث في أعقاب محتمات أوجدته ، ثم انتهى في أعقاب محتمات أنهته وهذا الطور الاجتماعي أفضت إليه عوامل شتى من اقتصادية وفكرية وأدبية وتاريخية ومما ادى الى ظهور الفروسية العربية في عهود ما قبل الإسلام تنافس القبائل فيما بينها ، واصطراعها على مساقط المياه ، ومنتجعات الكلأ ، وكان يعزز هذا الاصطراع وذلك الاحتراب ، افتقاد السلطة المركزية التي تستقطب ولاءات الأفراد والجماعات . فكانت القبائل تتحالف وتتحارب لأسباب لا تتصل بالمنافع الاقتصادية من قريب ولا من بعيد ، كحماية جار مثلاً ، أو إغاثة ملهوف ، أو دفع هوان ، أو انتصار لمظلوم والفروسية بحد

ذاتها لم تكن وقفاً على منطقة أو قبيلة وإنما شاعت في مناطق الجنوب ، كما انتشرت في الشمال ، وعرفها القحطانيون كما عرفها العدنانيون ، وكان الفرسان الذين يحيطون بمالك الحيرة ، لا يختلفون من حيث الثقافة وطرائق التفكير وقواعد الأخلاق ، عن فرسان الغساسنة ، وهؤلاء وأولئك لا يختلفون كذلك عن فرسان القبائل الضاربة في الصحراء فنشوء الفروسية لم يكن الا نتيجة عوامل شتى تضافرت لكن ماذا كان الحب بالنسبة لها وما اثره فيها وفي ايجادها ؟

في الجاهلية وصدر الاسلام كانت الأوضاع الاجتماعية السائدة قبلية تتعبأ فيها طاقات المجتمع وقواته المسلحة للدفاع عن القيم التي يؤمن بها الأفراد . فتتكون كفاءات خاصة ومزايا معينة يفرضها الصراع بين المؤمنين بالقيم ، المدافعين عنها في جانب ، والمعتدين عليها في الجانب الآخر ، ثم حيازة وسائل العدوان ووسائل الدفاع من مادية ومعنوية على السواء ، في آخر منزلة تلك هي شروط الفروسية اما القيم التي كان يؤمن بها العربي ويحافظ عليها ويدافع عنها ، في إطار الجاهلية ، اي قبل ان ينتشر التفكير الديني ويعم ، فيمكن تتبّعها في المظاهر التي تمثلت بها الفروسية . ويبدو ان أهمها العِرْضُ ، وعزة النفس وحماية الجار والحرية .

ولقد كانت الخصومات والثارات والمعارك والغارات جميعها تثور انتقاماً لمساس بواحد من هذه القيم ، وهي مترابطة ، متداخلة ، فمن اعتدى على عرض قبيلة فانه يسيء الى عزتها ، ويغدر بجوارها ، ويسترق عند التحقيق ، الفتاة التي ينالها اذا تمكن منها وهنا تثور ثائرة القبائل وتتنادى للحرب وتكون الويلات التي ما بعدها من ويلات وقلَّ أن تهدأ ثائرتها في وقت وجيز فتبرز معالم الحب والبطولات وتكثر الأحاديث والروايات .

ونشأت في إطار هذا الجهاز المترابط من القيم ، عادات وتقاليد وافكار ومبادىء ، كانت غاية في الصرامة والشدة ، كالامتناع عن تزويج فتاة عُرف أنها أحبت فتى وأحبها ، وتلك هي قصة معظم العشاق في الجاهلية ، وهذا تقليد أوجده الشعور بوجوب الدفاع عن العرض . وقد ثارت موقعة ذي قار بسبب حرقة ابنة النعمان ناهيك عن عزة في النفس كانت تحمل العربي على ضرب من السلوك يتحامى به ان يهان ، فإذا أهين كان العنف سبيله الى رد الاهانة ، وكان السلاح الحكم الاخير في نزاعه مع من أهانه . وقد قتل عمرو بن كلثوم عمرو بن هند لأن ام هذا

الاخير استخفت بأمه ، وأرادت ان تستخدمها عندما زارتها ، ونشبت من جراء ذلك معارك طويلة . وقصة كليب وحرب البسوس مثل آخر على عزة النفس ، وما يفضي اليه الدفاع عنها من حروب وغزوات وما الخلق الانساني النبيل الا حماية الجار التي تحمل المرء على التضحية في سبيل ضعيف لاذ به ، او مظلوم نشد عونه ، او ملهوف حل به عذاب ، و« الجار » ليس اكثر من تشبيه او استعارة لكل امرىء يضع نفسه في رعاية غيره او تحت حمايته ، إذ يصبح بذلك « مجاوراً له » ، ومتى جاوره دخل في « حماه » . والحمى هي المنطقة التي يبسط عليها رئيس القبيلة او الزعيم او الملك ، سلطانه ، ولا يجوز لاحد ولوجها إلا باذن صاحبها ، والاعتداء عليها ، اعتداء على الرئيس نفسه ، والذي « يستجير » بغيره ، إنما يعني انه دخل في حمى الجار الذي اختاره ، وعلى جاره بالتالي ، ان يصون حياته ، ويدفع عنه الأذى ، ويحارب اذا اقتضى الامر من اجله . وكثيرة هي الحروب التي نشبت بين الافراد والقبائل من اجل « مستجير » وهناك الحرية التي كم ناضلوا لأجلها ، فقد كان الرق والاسترقاق ـ وهما من مخلفات الهمجية ـ أقسى ما منيت به الحضارات الأولى من بلاء ، وكانت النساء معرَّضات لهما اكثر من الرجال ، وقد قاسين في سبيل التخلُّص منهما عذاباً حشيت بطون الكتب والتواريخ بأخباره . ولنا في سيرة عنترة مثلٌ كافٍ على تأثير الرق في بعث الفروسية فأبدى من البطولة ما كسب به حريته ، واستحق معه رضا عبلة واعجابها . وحديث الكثيرين من الشعراء امثال عنترة ليس سوى تطلع الى الحرية ، فالعِرض وعزة النفس ، وحماية الجار ، والحرية قيم مثلى خلقت جواً ثقافياً شاملاً ، وحياة نفسية عامة ، ووضعاً اجتماعياً خاصاً ، كان من شأنها متعاونة ، متداخلة ، ان ادت الى قيام حالة عسكرية ، نصفها بالفروسية اذ كانت الأخطار التي تهدد هذه القيم العليا ماثلة في حياة كل فرد ، وكل اسرة وكل قبيلة أما العرض فمهدد بتشبيب الشعراء ، وغزوات الخلعاء الأقوياء ، وحتى بميول النفس ونزواتها وشهواتها ،والكرامة فمهددة بالنظام القبلي نفسه وطراز المعيشة وطموح الكبار الى امتداد سطوتهم والاعتزاز بجاههم ، والجار مهدّد بضعفه وطمع القوي فيه ، والحرية مهددة بالرق والاسترقاق . . . وهذه الأخطار تعني ان على كل قبيلة أن تحيط وجودها وقيمها بسياجٍ من الفرسان والدعاة ، وهم الشعراء . وذلك ما وقع

بالفعل ، فكثر الفرسان والشعراء وكان لزاماً على المدافعين ان يتحلّوا بكل القيم التي سبق وذكرنا وبالكفاءات والسجايا والشمائل التي تنسجم وما يدافعون عنه ، أي بالشجاعة والنجدة ورباطة الجأش وشدة البأس والأمانة والكرم والأريحية والفطنة ، وما اليها من صفات تؤهلهم للقيام بالمهمة النبيلة التي وكلت اليهم في حياة قبيلتهم .

فلا يمكن مثلا لمن لا يغار على عرضه ، ان يدافع عن عرض غيره ، ولا لمن ذلت نفسه ان يثور لعزة أهله ، ولا لمن يغدر بالناس ان يستجير به الناس ، ولا لمن كان عبداً ان يكافح ويجالد من أجل الحرية . وقد حَصَلَتْ هاتيك الصفات في محيط الجاهلية وصدر الاسلام ، فالمروءة ، وهي خلاصة الأخلاق العربية ، ودستور حياتهم الاجتماعية ، ومدار فخرهم ومدائحهم ، ليست سوى الرجولة ممزوجة بالشعور الإنساني الرقيق فجمعت فروسية العرب أسمى الفضائل في حالتي السلم والحرب اما ما كان يكدر صفو الحياة في الجاهلية ويعكر عليها صفوها فهو الصورة التي نقلت الينا من بعدهم عنهم ـ وهي صورة لا تخلو من دعاية للدين الجديد ، ولا من مبالغة في ابراز العيوب ، توكيداً لصلاح الاوضاع التي قامت من بعد ـ إنما هو هذاك « الفقر » في الوسائل التي كان يستخدمها الفرسان في الدفاع عن قيم المجتمع ، وذلك « النزاع » حول حيازة الوسائل ، وأخيراً تلك « الوجهة » التي كان يتجه فيها النزاع ، فقد كانت وسائلهم مادية خالصة ، تعتمد العنف والسلاح ، ونزاعهم صبيانياً كأن يكون على ماء نزل عليه قوم ، او كلمة قيلت في حق رئيس او غير رئيس ، او شاة سلبت ، او ناقة منعت من الرعي . وكانت وجهة نزاعهم داخلية ، بمعنى انهم كانوا يقتتلون فيما بينهم ، وكلهم يؤمن بالذي يؤمن به خصمه من قيم عليا ، وهكذا كانت الحال ودامت حتى ظهور الإسلام فأضاف الى قيمهم الاخلاقية التي كانوا يقتتلون من اجلها ، قيمة جديدة هي « الدين » ، وخفّض من اعتمادهم مبدأ العنف وقوة السلاح بالرجوع الى الشريعة والقضاء ، وحوّل وجهة منازعاتهم الى الخارج ، الى غير العرب ممن أصرُّوا على الشرك ، وأقاموا على الوثنية وعبادة الاصنام ، فاكتسبت الفروسية في العهد الاسلامي وجهاً مشرقاً ، وأصبح الفرسان موضع الإعجاب والاكبار ، وكانت المهمة التي يؤدونها في حياة الانسانية ـ وهي الدفاع عن حرمات الدين ، ومقاومة المشركين ـ تخلع عليهم جلالاً وقدسيّة ،

وتجعلهم مهوى الافئدة ، وملاذ المظلومين والمستضعفين .

وقد تأثرت الشعوب التي احتك بها العرب من بعد ، بهذه الهالة التي تحيط الفارس ، فأخذت في تقليد العرب ، واتباع سنتهم ، ونشأت مع الزمن فروسية القرون الوسطى في اوروبا الغربية التي تحولت إلى مؤسسة مدينة لها انظمتها وقواعدها واخلاقها وتقاليدها ، وهي اخلاق وتقاليد لا تشذ في جملتها عن المروءة العربية وما تقتضيه من صفات وشمائل وما ذلك التمجيد للبطل والبطولة ، والتقديس للشجاعة ، ورفع المحارب الى أعلى مرتبة في مراتب السلم الاجتماعي الا النظرة الفضلى للفروسية ثم كان من شأن ذلك التمجيد للفروسية وأبطالها ، أن انتقل العرب في شمال افريقيا ، وغرب آسيا ـ أي أولئك الذين احتكوا منهم بالعالم الغربي احتكاكاً وثيقاً ـ إلى تذكر أبطالهم ، والتحدث عنهم ، وتخيل أجوائهم ، بعد أن بعد العهد بهم ، فوضعت قصة عنترة ، وتلتها قصة الملك سيف ، فتغريبة بني هلال ، فما أشبه من روايات الفروسية والبطولات الحربية ، ولكن قصة عنترة ، وشيوعها ، وتعلق الناس بها ، وإقبالهم على سماعها ، تظل هي الظواهر الأولى المعبرة عن تمجيد الفرسان والأبطال في عصر ارتدت أوضاعه العامة إلى ما يشبه الجاهلية من احتدام النزاعات الداخلية ، الى اضطراب الاوضاع الاجتماعية ، الى افتقاد السلطة المركزية .

وما قصة عنترة العبسي الا قصة الفروسية المثلى وهي في جوهرها ، قصة غرامية يشكل الحب نواة الحياة فيها ، ونجد ان بطولة عنترة انما انبثقت وامتدت بسبب من حبه وموقفه الاجتماعي مما يدل على ان الحب مبعث البطولة ولقد عُبِّر عن تلك البطولة بمختلف الاساليب في كل زمن وبلد ، وانتشرت هنا في الشرق ، بنسبة ما شاعت في الغرب . والفكرة التي تحظى بمثل هذا النجاح والانتشار ، انما تنجح وتنتشر لانها تقوم على اساس من واقع ، وتستند الى التجربة والاختبار فالمرأة مثلاً كانت وراء نشوئها في اطار الجاهلية (واعني نشوء الفروسية) حتى اذا أفل نجم المرأة في مطلع الاسلام ، احتل الدين محلها ، وتحول ولاء الرجال ، على نحو ما ، عن المحبوبة ، لينصرف إلى القيم الدينية ، وعندما انطفأ اللهب الديني في النفوس ، وانتشر العرب

تحت كل كوكب ، رجعوا إلى قيمهم الأصيلة التي سادت البادية في أواخر العهد الجاهلي ، ولكن دون جدوى . . . فما فات فات ، ولا يعود مرة ثانية . وهذا هو معنى القصص التي ملأت حياتهم ، وشغلت أنديتهم ومجتمعاتهم في القرن العاشر للميلاد ، وما بعده ، مثل قصص عنترة ، والملك سيف وما أشبه . . . والمرأة بحاجة الى من يحميها وتفضل القوي على الضعيف من الرجال ، وتسعى دوماً الى من يقيها أخطار العيش ويؤمن لها الرفاهية والطمأنينة ، وتشعر بالحاجة الى بذل نفسها ، الى العطاء ، الى التضحية لقاءمعان تشخصها الرجولة ، وقلما تأبه للضعاف المتهافتين من ذوي الهمم الخائرة ، والأفئدة الواهية ، والأبدان العليلة . وكانت الأوضاع الاجتماعية السائدة من انتشار الرق ، الى فقد الأمن ، الى كثرة المنازعات والحروب ، الى اضطراب الحياة الاقتصادية ، تشد في نفسها تلك الميول ، وتحملها على التعلق بمن تهيأت لهم أسباب حمايتها ، ووسائل رعايتها ، والدفاع عنها . وهؤلاء ـ بطبيعة الحال ـ هم الفرسان . والشجاع البطل منهم هو الذي ينال أكبر قسط من الحظوة لديها ، بل ان قيمته عندها كانت تقاس بمقدار ما يظهر من شجاعة ويحقق من انتصارات ، وكان واحدهم يبدي من ضروب البأس ، وأفانين المهارة ، اذا وقعت عليه عين امرأة ، ما قل أن يبديه اذا لم تشاهده ، أو لم يكن طيفها قائماً في ذهنه ، أو مالئاً خياله .

وظلت المرأة تذكي الحمية في النفوس ابَّان المعارك الحربية وحين يدعوا داعي البطولة حتى أصبح حب النساء وقفاً على الرجال الذين يبرعون في فروسيتهم ، ويحققون انتصارات عسكرية ، ولو في ميدان من الميادين ، فقد وقفت مثلا امرأة من بني عجل في وقعة ذي قار ، وصاحت تخاطب الرجال :

ان تقبلوا ا نعانق ونفرش النمارق
ان تُدبروا نفارق فراق غير وافق

ويتضح اثر المرأة في خلق هذا الجو « الفروسي » ، عندما نطلع على المراثي التي قالتها في تأبين من فقدت ، والاشعار التي نظمتها في مختلف المناسبات الحماسية والغزلية ومنها يتبين انها كانت تحب ، اكثر ما تحب ، اولئك الرجال الذين أبلوا أحسن البلاء في مقارعة الأبطال ، ومكايدة الأعداء ، كما يتبين انها كانت تحرّض قومها على الأخذ بالثأر ، حين تكون موتورة ، وتفخر بالاشداء الشجعان من اهلها حين تكون منتصرة .

ان اليد الطولى في بعث الفروسية ، انما كانت للمرأة وان المرأة هي التي كانت تربي اولادها على فضائل الفروسية وعاداتها ، وهي التي تنشد هاتيك الفضائل في الرجال وتعمل على تغذيتها في نفوسهم ، وقد تمكنت من بسط سلطانها على الحياة العامة عن هذا الطريق ، اذ كان يؤدي الى خدمة أغراضها في اول درجة ، ويبقي على شخصيتها وقيمتها في ظل الاوضاع الجاهلية والعهود المضطربة عامة .

***

وكان من شأن هذا الاساس الاجتماعي والروحي الذي بنيت عليه الفروسية ان اكتسب « الغزل » ، وهو كما سبق ان عرفه التبريزي ، مودة النساء والصبوة اليهن - روحاً عسكرية مع الزمن ، وأصبح التعامل مع النساء في حقل الحب او ميدانه ، يشبه في كثير من الوجوه ، خطط العسكريين ، ويفيد من مسالكهم وينحو في التصرف منحاهم ، ويستعير لغتهم وتعابيرهم في الجوانب المادية والمعنوية على السواء واليك قارئي العزيز جانباً ممّا قيل في ذلك .

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين الغيد ، مَوْقوفٌ على الخطر

واليك قول الفرزدق :

تزود منها نظرة لم تدع له ... فؤاداً ، ولم يشعر بما قد تزودا
فلم أر مقتولاً ، ولم أر قاتلا ... بغير سلاح مثلها حين أقصدا

وقول ابن ابي ربيعة :

دسّت الي رسولاً : لا تكن فرقاً ... واحذر - وقيت - وامر الحازم الحذر
اني سمعت رجالا من ذوي رحمي ... هم العدو بظهر الغيب ، قد نذروا
ان يقتلوك - وقاك القتل قادره - ... والله جارك مما أجمع النفر
السر يكتمه الاثنان بينهما ... وكل سر عدا الاثنين منتشر
والمرء ان هو لم يرقب بصبوته ... لمح العيون ، بسوء الظن يشتهر

وكثيراً ما كانت امثال هذه الألفاظ الجميلة ترد على ألسنة الشعراء ، والشعراء الغزليين على الأخص . وذلك لان المحب كان يخوض في واقع امره ، معركة مع

حبيبته تارة ، ومع أهلها تارة ، ومع الناس طوراً ، ومع نفسه طوراً ، وربما يخوض هذه المعارك الاربع معاً ، وما كان ليشعر قط انه في مأمن من الاخطار التي تحدق بشخصه او بحبيبته ، فكان عليه بطبيعة الحال ، ان ينقلب الى جندي ، أي الى « فارس » ، وان يتأدب بآداب الفروسية . واذا توانى عن ذلك ، او أخفق فيه ، خسر كل ما يؤهله لنيل رضا المرأة ، والحظوة في عينيها ولعلك واجد كل ذلك عند معظم الشعراء الغزليين في الجاهلية او في الاسلام ، من امرىء القيس الى عنترة الى عمر بن أبي ربيعة وغيرهم وغيرهم فهؤلاء جميعاً يتحدثون في كثير مما نظموا عن الاخطار التي كان الحب سببها واعتدادهم بفروسيتهم في دفع تلك الاخطار !

واليك قارئي مثلاً قول عمر بن ابي ربيعة سيد الغزل في صدر الاسلام

ولّما تقضى الليل الا أقله وكادت توالي نجمة تتغوّرُ
أشارت بان الحي قد حان منهم هبوب ولكن موعدٌ لك عزور
فما راعني الا منادٍ ترحّلوا وقد لاح معروف من الصبح اشقر
فلما رأت من قد تنبّه منهم وايقاظهم قالت : اشر كيف تأمر ؟
فقلت أباديهم فإما افوتهم واما ينال السيف ثأراً فيثأر

وفي مثل هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ الحضارة التي خلقها الاسلام ، واحتك فيها العرب احتكاكاً وثيقاً ، قريباً بالأجانب ، وبالفرس خاصة ، ثم بالفكر الأغريقي والهندي ، انصرف الناس الى تذكر الماضي ، وانتقلوا منه الى التفكير في الحب ، والتأمل . . . وكان ان مضى عهد المحبة الحقيقية حيث حلت الجواري محل الحرائر وحيث غلبت الروح الاجنبية على الروح العربية وبدأت عهود الفلسفة والشذوذ وتيارات جارفة من الجنس والخلاعة والتهتك وخاصة ايام ابي نواس حتى ماعت الحياة الاجتماعية ولم يبق من اثر لذلك الغزل الرقيق العذري ولا للفروسية التي كانت قبلة انظار الجميع . . . . انها عصور الانحطاط والتفسخ الخلقي . . . ولن تدوم طويلا .

لقد انتهى الحب الصحيح ، مع انتهاء السيطرة العربية ، وتغلُّب الجواري على الخلفاء ، وقصورهم ، وانتشار افكارهن وطرائق حياتهن في المجتمعات الاسلامية ، وعند ذاك بدأ عهدٌ جديد ، وهو عهد التفلسف والشذوذ الجنسي الذي بدأ على يد أبي نواس ، واستمر ، حتى افضى الى التصوف ، فالجمود ، فالانحطاط . . . .

الفَصْل الثَامِن

حديث ذو شجون

لقد كانت للمرأة العربية على وجه التقريب وفي كل العصور مكانة تكاد تكون هي التي يتمتع بها الرجل وكان الظلم والإرهاق بعيدين عنها خلافاً لما حلَّ بغيرها من نساء العالم في عهود التوحش والظلام وظلت المرأة العربية تسير على قدم المساواة مع الرجل في كل ما لها من حقوق وما عليها من واجبات الا فيما ندر وشاع من وأد البنات خشية الذل والفقر والعار حتى جاء البشير والنذير يقـول : « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم » .

ولقد بلغت المرأة في فترات تاريخية معروفة اسمى المناصب واحتلت ارفع المراكز كزنوبيا ملكة تدمر وبلقيس ملكة سبأ . . . لكن المرأة عنـد العـرب قد اقصيت تدريجياً عن ممارسة معظم الشؤون العامة واتجهت الاجيال التي تلتها نحو تعزيز المرأة على غير صعيد ، والافادة من مواهبها في غير حقل أو ميدان وفق ما اوحت سـيرة الممالك والدول العربية التي قامت بعد القرن الثالث للميلاد في مختلف الأقطار التي سادها العنصر العربي من جاهلية وإسلامية على السواء ، إذ لم يؤثر ان امرأة عربية واحدة أُتيح لها بعد زنوبيا ان تحكم او تتولى سدة الملك بصورة شرعية ، معترف بها من قبل الجماعة حيث حدث تطور خطير في نظرة العرب إلى المرأة وظهرت آثاره في الجاهلية الثانية ، أي التي سبقت الإسلام مباشرة واقتصر دور المرأة على رعاية الحياة في الرجال ، وإعانتهم على تحقيق آمالهم ومطامحهم ، وتشجيعهم على النبوغ في شتى النواحي والأعمال . أما اسباب هذا التطور وعوامله ، فانها لا تزال سرًّا من اسرار التاريخ المجهول . . . وستظل سراً ما دام هذا التاريخ مجهولاً . . .

امّا دور المرأة العربية في حضارة الجاهلية المعروفة وثقافتها فكان في ذروة الأهمية وعظم الشأن ، وان اقصيت عن السلطة ولم يبق لها في عالم الرئاسات والقيادات والأحكام نصيب ، فإليها كان يعود الفضل في نشوء البطولات التي ظهرت في ذلك العصر ، والعبقريات التي نمت في جو تلك الحضارة ، والشاعريات التي تدفقت في كل سبيل ، جداول رقراقة من الحكمة والأدب العالي والحس السليم وان اول ما يطالعك في شخصية المرأة العربية ، في اطار تلك الحضارة تلك الروح العجيبة من « التحرر » المسؤول الذي يردّها إلى حال من التعاطف الشديد مع حقائق الوجود الذي تعانيه ، وبه ومن خلاله تنفذ إلى الخافي من الأمور ، وتدرك ببصيرتها ما لا يراه البصر ، فتجد معظم نساء ذلك الجيل يتدبرون القضايا التي تتصل بحيواتهن تدبراً واعياً ، ويقلبن وجوه الرأي في شؤونهن تقليب عارف يثق بأحكامه ، ويطمئن إلى اختياره ، حتى إذا وقع الاختيار ، أسدلن الستار على الماضي ، وقمن بما يقتضيه كل موقف طارىء من تضحية وجلد وثبات وإيثار للحسنى . فأنت لا تطالع في اخبارهن وقصصهن حديث امرأة استهترت بنفسها ، او انتقضت قواعد الشرف وتحللت من مقتضيات العفة ، وانما كانت واحدتهن تستجيب لغريزتها حين تلح بالسعي وراء الزواج ، والصراحة مع الأهل في طلبه ، ولا تستهدف من وراء زواجها تحقيق مطلب آخر يصبح معه الزواج وسيلة لثروة او مكانة او غاية اخرى من الغايات الخسيسة واليك قارئي العزيز ما قالته هند بنت عتبة لأبيها : « إني امرأة قد ملكت أمري ، فلا تزوجني رجلاً حتى تعرضه عليّ». وكان جوابه : « لك ذلك » . وجاءها ذات يوم ، فقال لها : « خطبك رجلان من قومك ، ولست مسمّياً لكِ واحداً منهما حتى أصفه لك . اما الأول ففي الشرف الصميم والحسب الكريم وأما الآخر ففي الحسب الحسيب والرأي الاريب . وأبان لها صفات كل منهما فاختارت الثاني . لأنه على حد قولها بعل الحرة الكريمة . وهي تحب ما انطوى عليه من اخلاق قال ابوها : « ذاك ابو سفيان بن حرب ونعم ما انتقت فهو الرجل الرجل » .

وهذا مثل واحد من آلاف الأمثلة ، وكلها تريك في جملتها ان المرأة العربية كانت تنشد فيمن يستهويها من الرجال ، تلك المزايا والشمائل ، التي تلخصها كلمة « مروءة » ، وتنطوي في معانيها على الرجولة والانسانية ، على القوة والغيرة ، على الطموح والاريحية ، على الفطنة والبساطة وهذا يدلّ على ان المثل الاخلاقية العليا التي انتشرت في فضاء ذلك العصر ، وهيمنت على حضارته ،وأصبحت مع الايام

اهدافاً يسعى الناس وراء تحقيقها ، انقسمت بين الجنسين . فكان للمرأة اولاً ان « تطلب » في الرجال صفات خاصة ، ومن ثمة كانت تتعهد إنشاءها في بنيها وتلاحظ تحققها فيهم ، ثم كان الرجال ينشدون صفات في النساء ، تتركز حول الجمال ونماذجه ، والمعاني الاخلاقية الخاصة بالنساء ، وعلى رأسها العفة والصبر .

وما هذه الوصية التي اوصت بها أمٌّ ابنتها قبل الزواج الا مصداق على حسن التربية والانتقاء واحترام البيت الزوجي قالت : « أي بنيّة ! إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، ولو ان امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما اليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء خلقن للرجال ، ولهن خلق الرجال .

« أي بنيّة ! انك فارقت الجو الذي منه خرجت ، وخلّفت العش الذي فيه درجت ، الى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً ، فكوني له أمة يكن لك عبداً وشيكاً .

« يا بنيّة ! إحملي عني عشر خصال تكن لك ذخراً وذكرا : الصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع انفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشتم منك إلا أطيب ريح ، والكحل احسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عنه عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والارعاء على نفسه وحشمه وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير والارعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تفشي له سراً ، ولا تعصي له امراً ، فإن أفشيت سره لم تأمني غدره ، وإن عصيت امره أوغرت صدره . ثم إتّقي مع ذلك الفرح إن كان ترحاً ، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً ، فإن الخصلة الاولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكوني أشد ما تكونين له إعظاماً ، يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكون أطول ما تكونين له مرافقة . واعلمي انك لا تصلين الى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك ، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت » .

تلك هي الافكار والمبادىء والنظرات الخلقية التي نمت في وسطها شخصية المرأة العربية ، وعليها تركزت قيمتها وبنت عليها امجاد ماضيها وحاضرها ومستقبلها لتكون الدّرة النفسية في مجتمع هي احدى لبناته .

وكان من شأن هذه الشخصية ان بسطت ظلها على الحياة ، بشكل لم تعرفه . وكانت المرأة العربية تستغل سلطتها الأدبية في تحقيق المعاني الإنسانية النبيلة ، وتجهد ما أمكنها أن ترتفع إلى المستوى الشامخ الذي يضعها فيه الشعراء والعشاق ، دون اهتمام منها بشيء من الرفعة والجاه والأبهة والزخرف ، بل كان جل اهتمامها منصرفاً إلى الإبقاء على ما تراه لنفسها من كرامة :

روى الإمام علي بن أبي طالب هذه الحادثة فقال : « لما أتينا بسبايا طيء كانت في النساء جارية حماء ، حوراء العينين لعساء ، لمياء ، عيطاء ، شماء الأنف ، معتدلة القامة ، فلما رأيتها أعجبت بها فقلت : « لأطلبها إلى رسول الله ﷺ ليجعلها من فيئي ، فلما تكلمت ، نسيت جمالها لما سمعت من فصاحتها » . قالت :

- يا محمد ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فان رأيت ان تخلي عني ، فلا تشمت بي احياء العرب ، فاني بنت سيد قومي ! كان أبي يفك العاني ، ويحمي الدمار ، ويقري الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرّج عن المكروب ، ويطعم الطعام ويفشي السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط . أنا بنت حاتم الطائي .

فقال لها رسول الله ﷺ :

- يا جارية ! هذه صفات المؤمن ، ولو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه .

وانتفت الى من حوله وقال :

- خلّوا عنها ، فان أباها يحب مكارم الأخلاق !

هذه الشخصية التي حققتها المرأة العربية ، في مسالك الناس تجد الكثرة الغالبة منهم يتقربون منها بما يعرضون امامها من مفاخر ، ويسردون على مسامعها من مكارم أتوها ، او بطولات أقدموا عليها ، حتى اذا عرف لأحدهم زلة ، أو لحقه عار ، او منى بخيبة ، أو أساء الى شرفه في حادث او موقف ، نراه يعتذر للمرأة ، ويبسط لها بالتفصيل ما يبرره في نظرها ، كأن نساء ذلك الزمان هن « القيمات » على الاخلاق العامة ، القاضيات في كفاءات الرجال وما يستحقون .

ولقد كان للمرأة تأثيرها الفعّال في كل النفوس ممَّا فجر اسمى الينابيع العاطفية في كل منها وايقظها على معاني الكون التي يمكن ان تشارف على اسمى الآفات واحلى ذرى السمو والجمال ولقد لونت المرأة الحياة وجعلتها بهيجة مونعةفأدت احسن

الثمار لتلك المجتمعات التي ما هي فيها الا رحمها الخصبة ونورها الشارق ابداً يجلو غياهب الشك والظلمات ولم تكن بأية حال حتى لا يساء بها الظن « ذلك التجريد الشعري الخالص » انما برز سلطانها وتمثل في اكثر اشعار الجاهليين وصدر الإسلام والشعر والحب رافدان يصبان في نهر حضارة لا شريك له وتوأمان لا ينفصلان مهما كانت النتائج والظروف الحضارية . . . ولم يكن للشعر ان يعمّ وينتشر ذلك الانتشار الهائل لو لم تكن شخصية المرأة في الجاهلية هي الطاغية وهي القوة الفعّالة الموحية ومصدر العطاء وتوجيه الناس والأحداث الوجهة السليمة الكاملة .

وما قصة الاميرة دعد الا اروع الشواهد واقوى الأدلة على ما قلنا في شخصية المرأة ثم هنالك الموقف المشرّف الذي وقفته ام عمرو بن كلثوم حين تحدَّتها ام عمرو إبن هند وطلبت منها حاجة . . . فقالت : لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها اليس ذلك هو الإباء والأنفة ؟ اليست هي العظمة التي ما بعدها من عظمة ؟ أجل . . فلقد وجد في الأعراب من تأنف امه من خدمة امك ايها الملك المتغطرس « عمرو بن هند » ولقد كانت نتيجة هذه الغطرسة والحطّ من شأن الناس أن أطاحت امرأة برأس ملك كما قيل ايضاً ايام ابن الخطاب : أصابت امرأة وأخطأ عمر . . .

إنها المرأة وإن الحديث عنها لذي شجون فمهما قلنا وغالينا لا نوفيها حقها فهي بالنسبة لنا كل شيء . . . هي الجنة والنار . . . هي مصدر الحب والكراهية وهي هي التي تهز الدنيا بيمينها ساعة تشاء فلنفتش عن المرأة فهي السبب في كل ما نعمل ونفكر ونشتهي .

ولقد كان لشخصية المرأة اليد الطولى في ايجاد كل جو مندًّى بالعواطف الرقيقة ، الحافل بالبطولات ، المتطلع الى أسمى الفضائل ، الساعي وراء المحامد . وانك لواجد في مابقي من منثور النساء ومنظومهنَّ أدلة دامغة على صحة ذلك .

هاك مثلاً ما روي عن الاختين : جمعة وهند ابنتا الخس ، حين وافتا سوق عكاظ ، والتقتا عند القلمس . سأل جمعة فقال لها :

ـ أي الرجال أحب اليك يا جمعة ؟

ـ أحب الحر النجيب ، السري القريب ، السمح الحسيب ، الفطن الأريب ، المصقع الخطيب ، الشجاع المهيب .

ثم وجه الخطاب الى هند ، قائلاً :

ـ كيف تسمعين يا هند ؟

اجابت :

ـ وصفت رجلاً سيداً جواداً ، ينهض الى الخير صاعداً ، ويسرك غائباً وشاهداً وغيره أحب الي منه .

ـ قولي !

ـ أحب الرحب الذراع ، الطويل الباع ، السخي النفاع ، المنيع الدفاع ، الدهمثي المطاع ، البطل الشجاع ، الذي يحل باليفاع ، ويهين في الحمد المتاع .

لا أرى بعد من حاجة إلى التفصيل والإسهاب في الاستشهادات ، فكلام جمعة ابنة الخس واختها هند ، يلخص كل ما ورد لدى شاعرات ذلك الزمان في الفخر ، وفي الرثاء خاصة ، إذ كانت هذه الأوصاف هي كل ما يزدهي المرأة الجاهلية .

وقصة البسوس ايضا فهذه الأحداث الكبار التي شغلت قرابة قرن كامل من الجاهلية الثانية ، إنما كان لها أن تحدث لسبب واحد ، هو سلطان المرأة أولاً وأخيراً ، على مجتمعات ذلك العصر ، وقوة شخصيتها في الحياة العامة . ولا سبيل إلى تفسيرها ، بما ينطبق مع واقع الظروف التي حدثت فيها ، إلا عن طريق المرأة العربية وشخصيتها الطاغية ، المسيطرة ، الموجهة آنذاك للحوادث والأشخاص ولم يكن للمرأة أن تبلغ هذه المنزلة في حضارة الجاهلية ، أو تحقق تلك السيطرة اللامنظورة على المجتمع خلال الزمن ، دون حدوث أدنى رد فعل لدى الرجال ، لأن شخصية المرأة أماً كانت أو زوجة أو أختاً أو ابنة أو حبيبة كانت تستنفد ، لتتحقق على ذلك النحو ، كل ما لدى الكائن الإنساني من طاقات ، وتستلزم جهوداً كبيرة يبذلها الرجال ، ولا يسع كل الرجال أن يبذلوها . . .

ثم كانت المخاطر التي يتعرض لها رجال تلك الحضارة في سبيل الإبقاء على كرامة نسائهم ، والذود عنهن ، ونيل إعجابهن ، والاحتفاظ بودهن (كان للمرأة حق الطلاق في الجاهلية) ـ كانت تلك المخاطر غاية في القوة والشدة بحيث لا يوازيها ثواب الرجل عند المرأة في شيء ، بالغاً ما بلغ من متعة وحنان ووفاء وعون وإيناس . وهل تستطيع المرأة أن تقدم غير هذه الأشياء ؟ فضلاً عن أن سيطرة المرأة

تتسم دوماً بالعنف والصرامة ، فهي لقربها من الحياة ، وشدة التصاقها بأحزانها وآلامها ، ولكثرة ما تكابد منها في نفسها يوم لا تجد الحب ، ويوم تتزوج ، ويوم لا تتزوج ، ويوم تحمل ويوم لا تحمل ، ويوم تلد ، ولكثرة ما تكابد أيضاً من المجتمع أكانت دميمة ، أم جميلة ، رفيعة أم وضيعة ، غنية أم فقيرة ، تصبح متمرسة بالألم ، قادرة على فهمه والتصرف حياله والتحرر منه في آخر شوط ، فإذا تحكمت في المجتمع ، أو في الأسرة ، أو في الدولة عنفت أغلب الأحيان على الخاضعين لها وأوردتهم موارد العذاب ، وتحول اهتمامها كله الى اخضاع غيرها من النساء ، وانصرفت إلى المباهاة ، وقضت أيامها في الاستزادة من السطوة والتغلب على الآخرين . . . وهي تفعل ذلك كله بعفوية متناهية ، وبساطة غريبة ، منساقة به مع طبيعة ألفت الألم وسيطرت عليه فلا تخضع بعد إلا لنوازعها ، ورأيها ، واتجاهاتها ، أو تموت . . . وهذه العوامل كلّها مجتمعة خلقت في عرب الجاهلية رويداً رويداً ، ودون ان يعوا ضرباً من « الشعور بالمقت » للنساء ، تمثل حالة نفسية غامضة ، جد غامضة ، من التمرد على سلطة المرأة ـ وكانت سلطة خفية ـ في حياتهم ، ثم راحت تتضح شيئاً فشيئاً مع الزمن ، وتسوق الضعاف منهم الى شكوك من التصرفات الشاذة التي لا تقرها حضارتهم بحال ، وأبرزهاتيك التصرفات عملية « وأد » البنات التي تقف على طرفي نقيض مع كل ما بسطنا في هذا الفصل من إعظام للمرأة في إطار تلك الحضارة والواقع المرير الذي صعب على اكثر الباحثين فهمه ، وسلك الكثيرون منهم في تفسيره مسالك الجهال والقاصرين ، هو ان « الوأد » لم يكن دليل همجية ، ولا علامة انحطاط في المستوى العقلي والخلقي ، وإنما كان في التحليل الاخير ، رد فعل عنيفاً لسلطة المرأة الكاسحة في حياة ذلك الجيل . والذين كانوا يقومون به ـ وهم قلة شاذة ـ لم يكونوا على شيء من قوة النفس ، ومتانة الأعصاب ، تمكنهم من تحمل مشاق الحياة ، وحياة المرأة على الأخص . فهم يشبهون الى أقصى حد ، أولئك الذين ينتحرون في عصرنا هذا ـ وما اكثرهم ـ إذ يرزحون تحت أعباء المشاق والأوصاب ، ولا يملكون ان يأتلفوا مع الحياة ومقتضاياتها من جلاد وكفاح وتحمل وثبات . . . وامًّا وأد البنات فيعزى الى العامل الاقتصادي الذي ادى الى الكثير من المشاكل كما ادًّى الى إيصال المجتمع الجاهلي الى ذلك الوضع السيء الذي تردى فيه ، ولو كان هو العامل الوحيد ، لتحتم ان لا يظل في الجزيرة أب فقير ، الا ووأد بناته ، مما يفضي بذلك المجتمع ،

فيما لو وقع هذا الأمر ، الى الفناء في مدى جيل او جيلين على أبعد تقدير ! ولكن الذي وقع فعلاً ، هو ان الذين لجأوا الى هذا الحل ، لا يتجاوز عددهم اصابع اليد في طول الجزيرة العربية وعرضها طيلة العهود الجاهلية كلها ، وهي التي تنسحب على عشرات القرون ، وأنهم لم يكونوا سوى بلهاء او معتوهين او شاذين عجزوا عن التكيف مع الجو الذي عاشوا فيه ، وكان شأنهم شأن الذين ينتحرون في ايامنا هذه لا اكثر ولا أقل .

ومع هذا ، تظل للوأد ، كائنة ما كانت ضآلة عدد الذين أقدموا عليه ، دلالته الخاصة ، ألا وهي انهيار سلطان المرأة في إطار الحضارة الجاهلية ، وانحدار نجمها نحو الأفول ، ولكن لتعود فتطلع ثانية ، وتطل من سماء جديدة بنور جديد ، وتلك هي الثورة التي حققها الاسلام .

اما متى بدأ نجم المرأة العربية يأفل ، فهذا ما لا سبيل الى تعيينه على وجه الدقة ، ولكن يبدو في اكبر احتمال ، ان لإخفاق زنوبيا السياسي اثره العميق في تحوير نظرة العرب الى المرأة ، وجاءت من بعده المعارك بين القبائل ، والحروب والفتن التي تكمن وراءها المرأة ، كما رأينا في حرب البسوس ، ووقعة ذي قار ، ومقتل عمرو بن هند ، فمل المجتمع سلطة النساء وغلبتهنّ على الرجال ، وكان التذمر قد سرى في اكثر الاوساط من الاوضاع العامة التي تهيمن على الجاهلية برمتها ، وهي الاوضاع التي قامت بتأييد المرأة وتشجيعها وتربيتها وثقافتها وحاجاتها الخاصة ، المادية والمعنوية على السواء .

ولنلاحظ الآن هذا التذمر من مسلك النساء ، لدى علقمة بن عَبَدَةَ ، وهو من كبار الشعراء في الجاهلية :

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصيرٌ بأدواء النساء ، طبيب
اذا شاب رأس المرء او قل ماله فليس له من ودِّهنّ نصيب
يُرِدْنَ ثراءَ المالِ حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب

هذه الاحاسيس وما اشبهها ورادفها وتفرّع عنها ، تفيد بمجموعها ان المرأة تحوّلت في آخر طور من اطوار الحضارة الجاهلية الى مشكلة معتاصة حادة ، عجز المجتمع الجاهلي عن حلها ، وخلقت في حياته حالة من التوتر الشديد والحرج المرير كان يشعر بها اول الأمر أفرادٌ معدودون ، حتى اذا عمت وانتشرت وعظم بلاؤها -

وهي الناجمة عن مختلف الأزمات من اقتصادية واجتماعية وفكرية وسياسية ـ افضت الى نشوء عقلية جديدة ، وتفكير جديد ومثل عليا جديدة ، فكان الاسلام . فنزع السلطة من يد المرأة فعليا وسلّمها للرجل لأن الرجال قوّامون على النساء وساعده في هذه العملية الخطيرة ذلك الجوّ الذي نشأ في بدايات النهاية ، نهاية الجاهلية ، من شعور بالمقت نحو الإناث ، إلى تبرُّم بسلطان المرأة على النفوس ، إلى تحسب للمشاكل التي تثيرها في حيوات الناس ، فكان « اذا بشرّ أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » . ولذا ، نجد ان المفكرين جميعهم في مستهل الحركة الاسلامية يميلون إلى ابعاد المرأة عن الحياة العامة ، ويتشددون في ذلك تشدداً قوياً يرجع في جانب منه ، إلى المناخ الفكري الجاهلي وتجاربه القاسية ، والى لهب الشعور الديني الذي كان يومئذٍ في اوج حرارته وتألقه وسطوعه ، في الجانب الآخر . والإمام علي بن ابي طالب يمثل اولئك المفكرين أصدق تمثيل ، ويعبر الجو الفكري الذي كان يسود المجتمع العربي عند انبثاق الحركة الاسلامية ـ وهو الذي شهد انبثاقها ، وكان اول المنضوين الى لوائها ـ أبلغ تعبير .

وخلاصة ما يراه الامام علي ان « المرأة ريحانة » وليست «بقهرمانة» وانها « شر كلها وشر ما فيها انه لا بد منها » وأنها « عقرب حلوة اللبسة » ، والزمان الذي تسوده النساء ، إنما هو زمان فاسد ، يقرَّب فيه الفاجر ويرهق المؤمن .

وموقف الامام علي هذا ، هو موقف الصحابة ، والخلفاء الراشدين ، والولاة والعمال الذين أسندت اليهم السلطة في تلك الايام ، لا يختلف بين شخص وآخر إلا في البيان ، ولا يتفاوت إلا في درجة الشدة والصلابة . . . هذا ولم تلاقِ الحركة الاسلامية اذن مقاومة تذكر في انتزاع السلطة من ايدي النساء ، اذا قيست بالمقاومة التي لقيتها في النواحي الاخرى من الحياة العامة ولكن القاء التبعات على الرجال في كل ما يتعلق بالمرأة والاولاد ، وجعلهم قوّامين عليهن ـ أي مسؤولين بلغة القانون ـ أمران لم يفقدا المرأة العربية شخصيتها ، بل زادها قوة ومضاء من الناحية المعنوية الصرف ، فقد أبقى الإسلام للمرأة حق تقرير مصيرها بنفسها ، وترك لها مالها تتصرّف به كيف شاءت ولم يجعل لزوجها أدنى سلطان عليها ، وحمّل الرجال كل الاعباء ، على ان ينصرف النساء الى منازلهن ورعاية اولادهن والقيام بالواجبات الدينية التي تشمل النساء والرجال ، وان « لا يتبرجن تبرُّج الجاهلية » وأعجب ما حدث ابَّان نشوء الحركة الاسلامية ، ان المرأة كانت اول من آمن بها ، وشجع حتى

صاحبها على المضي في دعوته ، ولم تكد الرسالة تشيع وتجري في مجراها التاريخي ، حتى أخذ بها النساء قبل الرجال ، ووقفن ينافحن دونها ، ويدافعن عن رجالها ، حتى اذا أوتي لها ان تنتصر على اعدائها احتفظت المرأة بشخصيتها ، وأخذت تبرز ، ولكن في مجالات الحب ، ولا شيء في غيرها ، فظلت حيث كانت من رفعتها في الجاهلية ، واختفت عن مسرح الحياة العامة ، ولكن لتحيا في القلوب ، والقلوب وحدها .

والامثلة على عظم هذه الشخصية في الاسلام اكثر من ان يتسع لها المجال ، وفي احاديث الوافدات على معاوية بعد ان استتب له السلطان ، أدلة دامغة على عبقريتها واستقلالها وبطولتها كالحديث الذي دار بين معاوية وامرأة من كنانة أظهر أن للمرأة حقاً وأن لها الجرأة الكافية للمطالبة به فحقها دائماً يعلو ولا يعلى عليه وباطل غيرها يسفل حتى لا يبقى له من اثر .

ولنا في حديث أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، مع الحجاج مثل آخر على قوة الشخصية التي كانت تتمتع بها المرأة في ظل الإسلام :

وفد الحجاج على الوليد ، فوجده في بعض نزهه ، فاستقبله ، فلما رآه ترجل له ، وقبل يده ، وجعل يمشي وعليه درع وكنانة وقوس عربية ، فقال له الوليد :

ـ إركب يا أبا محمد !

ـ دعني يا أمير المؤمنين استكثر من الجهاد ، فإن ابن الزبير وابن الاشعث شغلاني عنك .

ولكن الوليد ألح عليه حتى ركب ، ودخل الوليد داره ، واقبل في غلالة ، ثم أذن للحجاج فدخل عليه في حالة تلك ، وأطال الجلوس عنده .

وبينما هو يحادثه إذ جاءت جارية فسارت الوليد ومضت ، ثم عادت فسارته ، ثم انصرفت :

قال الوليد للحجاج :

ـ أتدري ما قالت هذه يا أبا محمد ؟

لا والله !

ـ بعثتها إلى ابنة عمي أم البنين بنت عبد العزيز تقول : ما مجالستك لهذا الأعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة ؟

وأرسلت إليها أنه الحجاج فراعها ذلك ، وقالت :

ـ والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق !

فقال الحجاج :

ـ يا أمير المؤمنين ! دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول . فانما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، فلا تطلعهن على سرك ، ولا مكايدة عدوك ، ولا تطعهن في غير أنفسهن ، ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن ، وإياك ومشورتهن في الأمور ، فإن رأيهن إلى أفن ، وعزمهن إلى وهن ، واكنف عليهن من أبصارهن بحجبك ، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الجلوس معهن ، فإن ذلك أوفر لعقلك ، وأبين لفضلك .

ثم نهض الحجاج وخرج . . .

ودخل الوليد على أم البنين ، فأخبرها بمقالة الحجاج ، فقالت :

ـ يا أمير المؤمنين ! أحب أن تأمره غداً بالتسليم علي !

ـ أفعل .

ولما غدا الحجاج على الوليد ، قال له هذا :

ـ يا أبا محمد ! سر إلى أم البنين فسلم عليها !

ـ اعفني من ذلك يا أمير المؤمنين !

ـ لا بد من ذلك !

فمضى الحجاج إليها ، فحجبته طويلاً ، ثم أذنت له ، فأمرته قائماً ولم تأذن له في الجلوس ، ثم قالت :

ـ إيه يا حجاج ، أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث . أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة ، ولا بقتل ابن ذات

النطاقين ، وأول مولود ولد في الإسلام . وأما ابن الأشعث ، فقد والله ، والى عليك الهزائم ، حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك ، فأغاثك بأهل الشام ، وأنت في أضيق من القرن ، فأظلتك رماحهم ، وانجال كفاحهم . ولولا ذلك لكنت أذل من النقد . وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه ، فإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به عنك أمك ؛ فما أحقه بالأخذ عنك والقبول منك . وإن كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنه غير قابل منك ، ولا مصغ إلى نصيحتك . قاتل الله الشاعر وقد نظر إليك ، وسنان غزالة الحرورية بين كتفيك ، حيث يقول :

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

ثم قالت لخدمها :

أخرجنه عني ،

ودخل الوليد من فوره ، فسأله :

ـ يا أبا محمد ! ما كنت فيه ؟

ـ والله يا امير المؤمنين ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إلي من ظاهرها . . .

تلك هي شخصية المرأة في الإسلام ، في الدور الأول من ظهوره . وقد استمرت على ما هي عليه من قوة وتعلق بالأخلاق الرفيعة والمبادىء الشريفة ، إلى أن طغى الأجانب على الحكم ، وأوشك العرب أن يفقدوا استقلالهم على يد الفرس والترك وتغلغلهم في الجيش ودوائر الدولة وبيوت الحاكمين عن طريق الجواري والفتيان . وكان ان استرجعت المرأة سلطتها السياسية على يد السفاح اول خليفة عباسي .

وعندما ولي محمد الهادي العباسي الخلافة عام ١٦٩ هـ . كان ثاني خليفة لم تلده أم عربية ، وقد حاولت أمه ـ واسمها الخيزران ـ أن تستأثر بالحكم وتصبح الآمرة الناهية باسم ابنها ، ولكن هذا فطن لما يجري حوله في الخفاء ، عندما علم ان

الناس يتذمرون من تدخل امه ، وينظمون في شأنها الاشعار ، فأضمر في نفسه منعها من ذلك .

« وكلمته ذات يوم في أمر ، فلم يجد إلى إجابتها فيه سبيلاً فاعتلّ عليها بعلّة ، فقالت :

ـ لا بد من إجابتي !

ـ لا أفعل !

ـ أني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك .

فغضب الهادي وقال :

ـ ويل لابن الفاعلة ! قد علمت أنه صاحبها ! والله لا قضيتها لك !

ـ اذن والله لا أسألك أبدا .

وقامت مغضبة . فقال :

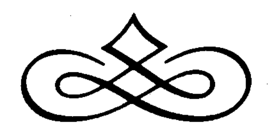
ـ مكانك فاستوعبي كلامي ! وإلا نفيت ـ والله ـ من قرابتي من رسول الله ! لئن بلغني انه وقف ببابك أحد من قوادي او من خاصتي أو من خدمي لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن شاء ذلك فليلزم ذلك ! ما هذه المواكب التي تغدو إلى بابك كل يوم ؟ أمالك منعزل يشغلك ؟ أو مصحف يذكرك ؟ أو بيت يصونك ؟ إياك ثم إياك أن تفتحي فاك في حاجة لمسلم ولاذمي !

فانصرفت وما تعقل ما تطأ ، ولم تنطق بحلو ولا مرّ بعدها . . .

وإذا كان الهادي قد وفق إلى منع أمه من التدخل في شؤون الدولة ، فإن الخلفاء والولاة والوزراء والقادة من بعده ، استرسلوا شيئاً فشيئاً مع الجواري وخضعوا في نهاية الأمر لسلطتهن ـ وكلهن أجنبيات ـ إلى أن ضاعت السلطة من يد العرب ، وفقدت المرأة العربية مع الزمن شخصيتها ، وغيبت عن الحياة . ثم لم تعد اليها إلا في مطلع هذا القرن وذلك مؤسف كل الأسف لأن المكانة المرموقة التي تمثلها النساء في كل مجتمع متى خلت فقد المجتمع بفقدها هيبته وانحدر في مهاوي التخلّف والسقوط فالانهيار وحبذا لو دام للمرأة ما تمتّعت به في عصور ازدهارها لكانت النتائج أقيم وافضل ولزخر المجتمع بالكثير الكثير والجليل من خوارق البطولات وجلائل الأعمال .

الفهرس

الصفحة



مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠٤